
المَحْمَلْ
وقافلة الحج الشامي
بسام ديوب

المحمل وقافلة
الحج الشامي

تقديم

منذ الأعمال الرائدة للأب جاك جومييه الذي غادرنا تاركاً عمله الذائع الصيت «المحمل وقافلة الحج المصري إلى مكة بين القرن الثالث عشر والقرن العشرين» المنشور في القاهرة عام ١٩٣٥م، وغالباً ما اكتفت أعمال البحث عن هذا المحمل الفارغ الموضوع فوق ظهر الجمل، والذي يرمز للسلطة ويشير إلى الحكام على مكة خلال موسم الحج، بالنتائج التي تضمنها عمله الكبير هذا. غير أن الأب جومييه كان يعالج فقط المحمل المصري الذي انطلق من القاهرة منذ العام ٦٦٤هـ/١٢٦٦م بناء على مبادرة من السلطان المملوكي الظاهر بيبرس. لذا فإن العديد من المحامل الأخرى قد ظهرت خلال العقود والقرون التالية وفقاً لهذا النموذج، وغالباً بطابع تنافسي معه، في اليمن والعراق وسورية قبل استانبول، هذه البلدان التي أصبحت بدورها - تحت سيطرة السلاطين العثمانيين - نقطة انطلاق ينطلق منها هذا المحمل الذي لم يكشف لنا كل أسراره بعد.

بالتأكيد فإن المحمل الأكثر إهمالاً بين هذه المحامل، هو ذاك الذي أخذ ينطلق من دمشق بدءاً من العام ٦٨٢هـ/١٢٨٤م. في حقيقة الأمر، فإن المعنى الذي يجب إعطاؤه له غير واضح: كيف لأحد أن يفسر أن نفس السلطة (السلطان المملوكي) تُمثل مرتين بنفس الرمز في مكة، مرة بالمحمل المصري وأخرى بالشامي: حيث أن الاثنين معاً يمثلان سلطة السلطان المملوكي؟

هذا واحد من الأسئلة التي يحاول الإجابة عليها، هذا العمل الرائع للباحث بسام ديوب، والمرتبط بدراسة عبقرية وتاريخ المحمل.

في الصفحات التالية، نجد عملاً معتنى به ودقيقاً حول واحد من الرموز الأكثر أصالة في تمثيل السلطة الإسلامية، والتي امتد وجودها لأكثر من ٦٠٠ عام، فحياة الدمشقيين ارتبطت بإيقاع خروج وانطلاق وعودة المحمل، مُحدثاً في كل مرة جواً من الفرح والتُقى، ومُعبّراً أيضاً عن فخر مَحلي، هو أن دمشق عبر هذه الاحتفالية وجدت مكانها كعاصمة إسلامية كبرى.

يُسجَّل هذا الكتاب في قائمة أعمال المدرسة التاريخية السورية التي قدمت أسماءً لامعة منذ صلاح الدين المنجد وخالد معاذ. إنها دراسة متأنية شاملة مستفيضة، وبسام ديوب يمتلك معرفة جيدة بالمصادر التاريخية والطبوغرافية لدمشق، ليقدم لنا كتاباً رائعاً يعكس الروح السورية.

جان ميشيل موتون

أستاذ الدراسات بالمدرسة التطبيقية للدراسات العليا

باريس، فرنسا

Préface

Depuis les travaux pionniers du Père Jacques Jomier qui vient de nous quitter et son fameux «Maḥmal et la caravane égyptienne des pèlerins de La Mecque (XIIIe-XXe siècle)» publié au Caire en 1953, les travaux sur ce palanquin vide monté sur le dos d'un chameau et chargé de représenter le pouvoir souverain à La Mecque au moment du pèlerinage se sont bien souvent contentés de reprendre les conclusions de cet ouvrage majeur. Pourtant, il n'y était essentiellement question que du maḥmal égyptien qui, depuis 664/1266, à l'initiative du sultan mamlouk Baybars, partait du Caire. Or sur ce modèle et bien souvent directement en concurrence avec lui, de nombreux autres maḥmal se sont mis en place dans les décennies et les siècles suivants, au Yémen, puis en Iraq et en Syrie, avant qu'Istanbul, sous la domination des sultans ottomans, ne devienne à son tour le point de départ de ce palanquin qui n'a pas encore livré tous ses mystères.

Sans doute le plus négligé de tous ces maḥmal est celui qui, à partir de 682/1284 partait de Damas. En effet, le sens qu'il fallait lui donner n'était pas clair. Comment expliquer qu'un même pouvoir, celui du sultan mamlouk, puisse être représenté deux fois, par le même symbole à La Mecque : une fois par le maḥmal égyptien et une autre par le maḥmal syrien qui relevaient tous les deux de son autorité ? C'est une des questions à laquelle tente de répondre le très beau travail de Bassam Dayoub en s'attachant à l'étude de la genèse et à l'histoire de cet équipage.

On retrouve dans les pages qui suivent un travail attentif et précis sur une des représentations les plus

originales du pouvoir musulman qui eut la vie longue puisque durant près 600 ans, la vie des Damascains fut rythmée par la sortie, le départ et le retour du maḥmal suscitant à chaque fois une atmosphère de liesse et de piété et exprimant aussi une certaine fierté urbaine : Damas avait retrouvé, à travers cette manifestation, son rang de grande capitale du monde musulman.

Ce livre s'inscrit dans la lignée des travaux de l'Ecole historique syrienne qui a fourni des noms illustres depuis Salāḥ al-Dīn al-Munajid et Khaled Moaz. C'est une étude attentive, érudite et exhaustive qui nous est ici présentée. Fin connaisseur des sources historiques et de la topographie damascaine, Bassam Dayoub nous livre un bel ouvrage où transparaît l'âme syrienne.

Jean-Michel Mouton

Directeur d'études

Ecole Pratique des Hautes Etudes

الإهداء

إلى الأنثى في حياتي وما ارتبطتُ بها

قصص «زمان أول».. جدتي مدينة

وجودي .. أمي دلال

أنا .. حبيبتي لمياء

شكر

أتقدم بالشكر لكل من ساهم في إنجاز هذا الكتاب، سواءً من خلال الدعم أو تقديم النصح، وأخص بالذكر السيد جون ميشيل موتون وأحمد ايبش.

كما أخص الأستاذ أليستر نورثرج بالشكر والامتنان لمساعدته القيمة في الإشراف على تعليمي الأكاديمي في السنوات الماضية.

المحمل وقافلة الحج الشامي

مقدمة:

نحاول في الصفحات التالية ملامسة موضوع شغل الدمشقيين بمختلف شرائحهم لفترة طويلة من الزمن، ألا وهو محمل الحج وقافلته، متناولين تاريخ المحمل عامةً والشامي خاصةً، ثم تقاليده مع قافلته المشهورة، بدءاً من دمشق (شام شريف) حتى عودته لها من الحجاز: حيث نقر أن جُلّ ما قدمناه مستقًى من مصادر ومراجع قد يصفها البعض بالتكرار، وهو ما دفعنا للابتعاد عن ذلك قدر الإمكان واضافة الجديد الذي لم يتناوله الآخرون أو ربما تجاهلوه.

على أنه أول محاولة لسرد قصة المحمل من دمشق وإليها، نرجو أن نكون قد وُفّقنا فيما ذهبنا إليه في بعض استنتاجاتنا، وأن يكون ربط الأفكار من المشارب المختلفة جاء سَلساً بعيداً عن الملل متسقاً مع المنطق.

أخيراً نترك المجال لكم للحكم، وعسى أن نكون قد خطونا خطوة للأمام أو بددنا قليلاً من العتمة حول هذا الموضوع لمن يأتي بعدنا.

تعريف المحمل:

لغوياً:

المحمل لغوياً هو أحد وسائل الركوب الشائعة عند العرب، والتي كانت تُستخدم للمسافات الطويلة خاصة كالحج، وتوضع على ظهر الجمل كالهودج.

ففي حين نلفظ نحن في لهجتنا الدارجة «مَحْمَل»، تعطينا كتب اللغة وزنين مخالفين تماماً لما نلفظ:

على وزن مِنْبَر	مِحْمَل
وعلى وزن مَجْلِس	مَحْمِل[1]

من الجليّ هنا أن المحمل موضوع البحث هو غير ما أوردته كتب اللغة، ولذلك لا بّد لنا أن نستقصي أكثر لإيضاح المفهوم: «يَرِد عند إبراهيم حلمي أن المحمل هو الجمل الذي يحمل الهدايا إلى البيت المعظّم»[2]، أي أننا هنا في مشكلة التحديد بين الحامل (الجمل) والمحمول (المحمل)، والحل الوحيد الذي وجدناه أسعفتنا به المعاجم حول تعريف الحُمول:

---

(١) الزبيدي، تاج العروس، مج٧، ص ٣٨٩.
القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص١٣٠.
ابن منظور، لسان العرب، ج١٣، ص١٩٨.
معلوف، يوسف، المنجد، ص١٥١.
(٢) حلمي، إبراهيم، المحمل، ص٩.
البتوني، محمد لبيب، الرحلة الحجازية، ص١٩٢.

«الهوادج كان فيها نساءً أو لم يكن ولا يقال حُمول للإبل إلاّ لما عليه الهوادج. وهناك رأي آخر بأن المفهوم يتسع ويُطلق على الإبل التي عليها الهوادج»[٣].

فالحالة هنا تتطابق مع المحمل الذي كان يطلق بداية على ما يوضع على ظهر الجمل ثم عليه (أي الجمل). أما المحمل موضوع البحث، فلدينا عدة تعاريف تعكس وجهة نظر الشخص الذي يراه.

حسب المؤرخين والرحالة:

حسب وصف القلقشندي، يُقصد به المحمل المصري: «خركاه (نوع من أنواع القبب التركية) عليه غشاء من حرير أصفر أطلس، وبأعلاه قبة من فضة مطلية[٤]. وكما يبدو أن الشامي كذلك كان له نفس اللون»[٥].

يقدم موندريل وصفاً لموكب الحج في ٢٩ نيسان ١٦٩٧م الموافق ٩ شوال ١١٠٨هـ فيقول: «هو عبارة عن خيمة كبيرة من الحرير الأسود منصوبة على ظهر جمل ضخم للغاية، تتدلى شراشيبه من حوله حتى تصل الأرض، وتزين قمته كرة ذهبية

---

(٣) ابن منظور. لسان العرب. مج ٧. ص١٩٠. حيث يُورد بيتاً لأبي ذؤيب يصف الجمال الحمول كالنخل يقول:

يا هَل أريك حمول الحي غادية
كالنخل زَيّنَها نيع وافصاح

ومعلوف. يوسف. المنجد. ص١٥٠.

(٤) الخركاه كما يعرفها القلقشندي بيت من خشب مصنوع على هيئة مخصوصة ويغشى بالجوخ أو نحوه تحمل في السفر كي تكون للمبيت في الخيمة في الشتاء وقاية من البرد. القلقشندي. صبح الأعشى. ج٢. ص١٣١. ج٤. ص٥٧.

(٥) السلوك في معرفة دول الملوك. تحقيق: محمد مصطفى زيادة. ج٣. ق٣. ص٢١٤.

تتدلى منها أيضاً شراشيب ذهبية. وكان جمل المحمل مزيناً بما لا حصر له من الزينات كالمرايا والصدف وذيول الثعالب وأقمشة الزينة المختلفة»[٦].

عرّف دولتشين -ضابط روسي مسلم زار المنطقة في أواخر القرن التاسع عشر- المحامل بشكل عام كما يلي: «خيام مزينة ببالغ الغنى محمولة باحتفال خاص على جمال معدة خصيصاً لها»[٧].

كما وصفه العظمة: «هو عبارة عن محفة كبيرة مجللة بالديباج منقوش عليها عدة آيات قرآنية والفراء السلطانية، ولها رصافات مموهة بالذهب»[٨].

يأتي وصف نعيسة مستوحىً من وصف موندريل: «هيكل هرمي مغطى بقماش مخملي كُتبت عليه آيات من القرآن، يحمله جمل مزركش بأنواع الأقمشة والجلود وخِيطَت عليه الأصداف الصغيرة والمرايا»[٩].

يقول إبراهيم رفعت في مرآة الحرمين: «المحمل أعواد من خشب على شكل هودج، ذو سقف مربع يأخذ في الارتفاع من

---

(٦) Wright. Thomas, early travels in Palestine. pp 489-490
الترجمة مأخوذة من نعيسة. يوسف. مجتمع مدينة دمشق. ج٢، هامش رقم ٢، ص٦٧٢.
وهو يعطي تاريخاً خاطئاً هو ٢٩ كانون الثاني وينسبه لرايت الذي جمع وعلق على النصوص بينما هو بالفعل للرحالة موندريل.
(٧) ريزفان. يفيم. الحج قبل ١٠٠ سنة. ص١٢٥.
(٨) العظمة. عبد العزيز. مرآة الشام. تحقيق: نجدة فتحي صفوة. ص١١٥. الرصافات هي الصنوبرات والديكور المعدني للمحمل.
(٩) نعيسة. يوسف. مجتمع مدينة دمشق. ج٢. هوامش ص٦٦٧.
ابن كنان. المواكب الإسلامية. تحقيق: يوسف نعيسة. ص٤٢٥. الحاشية رقم ١.

الجوانب إلى الوسط الذي فيه قائم ينتهي بهلال. تُسدل في العادة على ذلك الهيكل الخشبي كسوةٌ قد تكون من الحرير أو من غيره. يوضع أثناء السفر على جمل»[10].

كما نرى، فإن المحمل هيكلٌ خشبي يتكون من مكعب يعلوه شكل هرمي يُسدل عليه القماش الحريري المطرز والمزخرف بالتفريعات النباتية والكتابات القرآنية. يتميز أحد وجوه الهرم بوجود اسم السلطان، ويعلو قمته والأركان الأربعة للمكعب ديكورٌ معدني له شكل صنوبرة تلف حوله قطعٌ قماشية ذات شراشيب، ما يجعل المحمل والجمل الذي يحمله يبدوان في مظاهر الزينة الباذخة.

تاريخ المحمل:

خلال البحث، واجهتنا صعوبةٌ في التفريق بين المحمل المرتبط بالحج والمحمل كأداة من أدوات الركوب التي تستخدم لقضاء حج أقل عناءً، كون مشقة الحج في تلك العصور كانت في الطريق ومخاطره.

تنوعت الآراء حول بدايات عادة إرسال المحمل في الكتب وبين المؤرخين والباحثين، فهناك من ينسبها في المأثورات والسير الشعبية لشجرة الدر، لكننا نسقطها كونها لا ترتبط بأي دليل أو شاهد تاريخي موثوق[11]. أما في «تاج العروس»،

---

(١٠) رفعت باشا، إبراهيم. مرآة الحرمين. ج٢، ص٤٠٣.

(١١) الموسوعة الإسلامية، مج٦. مادة Mahmal بتحرير Fr.Buhl وJ.Jomier. ص٤٣.
التبنوني، محمد لبيب. الرحلة الحجازية، ص١٩٣ .

فتُنْسَب المحامل للحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق الأموي الذي يقول فيه الشاعر:

أول من اتخذ المحاملا

أخزاه ربي عاجلاً أو آجلا[١٢]

في «محمل» معارضته لهذه الفكرة، يستشهد إبراهيم حلمي بشخصية الحجاج ودمويته وعدم ورعه وتقاه، وبالتالي لا يمكن أن تخرج منه هذه البادرة. لكن على الأغلب فإن المحمل المقصود هنا هو أداة الركوب العادية، وهو غير ذي قيمة رمزية كما تحدثنا أعلاه، حيث يرد في أحكام الحج وشرعية استخدامه[١٣] كون التعب في طريق الحج له الثواب الأعظم، بالتالي فقد خالف الحَجّاج بأسلوبه هذا مثالية الإسلام الأقرب لعصر النبي (ص) وصحبه، إذاً لا نستطيع الربط بين ما ورد عن كون الحجاج أول من اتخذ المحامل وبين عادة إرسال محمل خاص كرمز للسيادة على الأماكن المقدسة، أي أن يحمل سمةً سياسيةً أكثر منها دينية، خاصة وأن الدولة الأموية لم تعرف هذا التوجه بعد القضاء على ثورة عبد الله بن الزبير[١٤] وتأكيد سيطرتها وسيادتها الحقيقية والفعلية على الحجاز.

---

(١٢) الزبيدي، تاج العروس، مج٧، ص٣٨٩. يورد إبراهيم حلمي الرأي نفسه نقلاً عن السيوطي في كتابه «الكنز المدفون» دون ذكر لرقم الصفحة. حلمي، إبراهيم، المحمل، ص٩.

(١٣) حول الاستظلال بالمحمل وأحكامه خلال الحج انظر: إبراهيم بن فرحون المدني المالكي، إرشاد السالك إلى أفعال المناسك، تحقيق: محمد أبو الأجفان، ج٢، ص٣٩٥.

(١٤) حول الزبير وثورته راجع: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٢ . حيث يتضمن المجلد الرابع حوادث ثورته والقضاء عليها من قبل الأمويين.

كانت ثورة عبد الله بن الزبير قد قضّت مضاجع بني أمية حتى ان عبد الملك منع اهل الشام من الحج إلى مكة وأبدلهم ببناء قبة الصخرة لتحويل أنظارهم عن المسجد الحرام بمكة. انظر اليعقوبي في تاريخه، دار صادر، بيروت، د. ت، مج٢، ص٢٦١ .

ولعل الحالة نفسها قد استمرت في العصر العباسي الأول بخلفائه الأقوياء حتى فترة الضعف التي انتابت الدولة المترامية الأطراف، مع سيطرة العناصر الأجنبية وتسلطها على مؤسسة الخلافة، حيث بدأت الدويلات بالانفصال عن سلطة بغداد مع التبعية الاسمية للخليفة كنوع من الشرعية التي بدأت تفرض نفسها، وذلك مع ظهور خلافة جديدة في مصر وهي الخلافة الفاطمية وبدء مرحلة جديدة من التنافس والتناحر والتشتت رافقتها غزوات المغول والحروب الصليبية. فقبل سقوط الخلافة العباسية في بغداد وقتل آخر الخلفاء العباسيين سنة ٦٥٨هـ، رأينا في المصادر التاريخية عدة مظاهر من المواكب والقوافل ذات التقاليد التي ارتبطت بالحج وكانت تحمل سمة السيادة الرمزية، منها:

قافلة الشمسة

خلال بحثنا وجدنا أن أقدمها كانت قافلة مستقلة عن الحج تعرف بقافلة الشمسة، لها قائد خاص يبعث من بغداد وتسلم الشمسة لسدنة الكعبة وهي ضربٌ من القلائد[١٥]، أول من عملها كان المتوكل حيث بعث بسلسلة من ذهب كانت تعلق مع الياقوتة التي أرسلها المأمون قبله.

كما قام كافور الإخشيدي بذلك لمولاه أنوجور بن الإخشيد وكانت ترسل مع الركب كل عام[١٦].

---

(١٥) ابن منظور. لسان العرب. مج ٧. ص٤٢٠.
(١٦) الزيلعي. أحمد عمر. مكة وعلاقاتها الخارجية. ص٩٥-٩٨.

والمعز لدين الله كان أول من صنعها من الخلفاء الفاطميين ونصبها بقصره بعد أن دخل مصر مباشرة سنة ٣٦٢هـ[١٧].

«في يوم عرفة نصب المعزّ الشمسة التي عملها للكعبة على إيوان قصره، وسعتها اثنا عشر شبراً في مثلها، وأرضها ديباج أحمر، ودورها اثنا عشر هلال ذهب، وفي كل هلال أترجة ذهب مشبك، جوف كل أترجة خمسون درة كبيض الحمام، وفيها الياقوت الأحمر والأصفر والأزرق، وفي دورها مكتوبٌ آيات الحج بزمرد أخضر، وحشو الكتابة در كبار لم ير مثله، وحشو الشمسة المسك المسحوق؛ فرآها الناس في القصر ومن خارجه لعلو موضعها».

إذاً إرسال الشمسة بقافلة مستقلة لها قائد خاص كان له سمة السيادة، وإلاّ لما رأينا المعزّ لدين الله الفاطمي يسارع لصنع واحدة. كما أن خليفة بغداد بعد أن نهبت قافلتها من قبل القرامطة يتقصد يوم القبض عليهم سنة ٢٩٤هـ وتنفيذ الحكم فيهم إظهارها للعامة[١٨]. كما كانت ترافق موكب الخليفة حين اعتلائه العرش مثلما جرى سنة ٦٣٢هـ: «وركب ظاهراً يوم الإثنين الآتي في دجلة بأبهة الخلافة ثم ركب والناس كافة مشاة ووراءه الشمسة والألوية المذهبة»[١٩]، ونفهم من الخبر الوارد عند ابن خلدون أنها - أي الشمسة - لعبت الدور الأساس وأضحت

---

(١٧) المقريزي، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق: جمال الدين شيّال، ص١٩٢-١٩٤. الأترجة: نوع من الحمضيات يعرف في الشام بالكباد كما أن هناك نوعاً من القوارير لوضع العطر يعرف بالاسم نفسه.
فيما يتعلق بموضوع الشمسة انظر كذلك:
الأزرقي، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق: رشدي الصالح حسن ملحن، ج١، ص٢٥٥.

(١٨) ابن عساكر، تاريخ دمشق، تحقيق: عمر بن غرامة العمروي، ج٧١، ص٢٤٢.

(١٩) الذهبي، تاريخ الإسلام، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، مج ٤٥، ص١٩.

رمزاً من رموز السلطنة، فعند وفاة السلطان السلجوقي سنة ٤٩٨هـ قام الوصي على ابنه الصغير بإحضار «السرادقات والخيام والجتر والشمسة وجميع آلات السلطنة»[٢٠].

قافلة إرسال مفتاح الكعبة

إن عادة إرسال مفتاح الكعبة والتي تندرج تحت نفس المقصد، وهو تثبيت المسؤولية على رعاية البيت الحرام وبالتالي التقدم شرفياً - على الأقل - على الآخرين عرفت في العهد العباسي واستمرت حتى العثماني حيث كان لها موكب خاص في العاصمة، وتشهد على ذلك المفاتيح التي بقيت ومنقوش عليها أسماء من أرسلوها[٢١].

المهد

في سنة ٦٠٢هـ أمر الخليفة بدخول «المهد والعلم» في الليل دون موكب لأن أمير الحج لم يعد إلى بغداد بل إلى دمشق[٢٢]، وفي نفس العام كان موكب الوزير الجديد يسير وراءه المهد

---

(٢٠) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. ج٣. ص٦٠٨.
الجتر بجيم مكسورة قد تبدل شيناً فتصبح الشتر وهي قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب على أعلاها طائر من فضة مطلية بالذهب تحمل على رأس السلطان خلال المواكب. تعود بأصول استخدامها للدولة الفاطمية ثم انتقلت للسلاجقة فأصبحت من علامات السلطة.

(٢١) يلماز. طرجان. الكعبة المشرفة. دراسة أثرية لمجموعة من أقفالها ومفاتيحها المحفوظة في متحف طوبي قابي باستانبول. ص١١-٢٣ كما يمكن مراجعة:
Sourdel-Thomine, Janine, «Clefs et serrures de la Ka'ba, Geuthner, «Paris, 1971

(٢٢) سبط ابن الجوزي. مرآة الزمان. مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية. ج٨. ق٢. ص٥٢١.

الأصفر وألوية الحمد والطبول والكوسات[٢٣]. من الخبرين نلاحظ ما يلي:

- كان المهد يرافق قافلة الحج ولابد أنه عرف موكباً عند الذهاب كما هو مؤكد عند عودته من الخبر.
- خروجه في المواكب يؤكد سمة السيادة والرمزية للسلطة التي يمثلها .
- اللون الأصفر هو اللون الذي نراه تالياً للمحمل في العصر المملوكي.

أما عن شكله فهو لا يعدو كونه سريراً خشبياً لطفل، لكنه أكثر ألواناً وبهرجة، ومجللاً بالقماش الأصفر كما نتوقع.

ظهور المحمل:

قام بيبرس بعد انتصار عين جالوت الذي مهد لاستلامه السلطة بتعيين أحد أقارب الخليفة المقتول خليفةً بالقاهرة، وأحيا به من جديد الخلافة التي استمرت حتى سقوط القاهرة بيد العثمانيين واستمرار لقب الخلافة بسلالتهم[٢٤].

ولا يخفى على أحد أن هذا التصرف يندرج في إطار البحث عن الشرعية، حيث أتبعه فيما بعد بإرسال المحمل إلى البلاد الحجازية لتأكيد السيادة عليها .

---

(٢٣) أبو شامة، ذيل الروضتين، تحقيق: محمد زاهد بن حسن الكوثري، ص٥٢ .

(٢٤) حول الخليفة الجديد بعد مقتل آخر الخلفاء العباسيين ببغداد انظر ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، ج١، ق١، ص٣٢٠.
سرور، محمد جمال، دولة الظاهر بيبرس في مصر، ص٥٣-٥٩ .
المقريزي، السلوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، ج١، ق١، ص٤٤٨-٤٥١ .

لكن السؤال هو، هل كان بيبرس فعلاً أول من أطلق المحمل؟

في الحقيقة عثرنا على كلمة المحمل في نص يعود لسنة ٦٥٩هـ، وهو تفويض من قبل الخليفة الجديد في القاهرة لأحدهم مع ابن أخيه للإشراف على مصالح المسجد الحرام، وذكر النص صراحة المحمل والسبيل[٢٥]، وهو ما يستدعي الفرضية التالية: إذا انطلقنا من أن الكلمتين لم تكونا قد أقحمتا على السياق، فإن المحمل وجد - كفكرة على الأقل - في أواخر الدولة العباسية قبل الاجتياح المغولي سنة ٦٥٨هـ، ومنها انطلق الظاهر بيبرس في إرساء هذا التقليد، أما ما ورد عند المقريزي من أن بيبرس «أول من أدار المحمل»[٢٦]، فالنص واضح كما نرى بتأكيده على كلمة «أدار» أي أول من نشر تقليد الدورة وطواف المحمل في القاهرة، ونعود لكي نطرح سؤالاً آخر، في أي عام كان ذلك؟

علي مبارك يذكر أن ذلك كان في العام ٦٧٥هـ[٢٧]. وهذا بعيد عن الحقيقة، ولم نجد في كتب التاريخ ما يؤيده.

فيما تذكر الموسوعة الإسلامية العام ٦٦٤هـ[٢٨]، وهو الأقرب للصواب، حيث ترد عبارة تجهيز المحمل ذلك العام عند المقريزي في كتابه «السلوك»[٢٩].

---

(٢٥) ابن فهد. محمد. إتحاف الورى بأخبار أم القرى. ج٣. ص٨٧.

(٢٦) المقريزي، الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق: جمال الدين الشيال، ص١١.

الأنصاري الجزيري، درر الفوائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، ص٦٦٥.

(٢٧) مبارك، علي، الخطط التوفيقية، ج١، ص٢٩.

(٢٨) الموسوعة الإسلامية، مادة Mahmal، بتحرير J.Jomier و Fr.Buhl، مج٦، ص٤٣.

(٢٩) المقريزي، السلوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، مج١، ق١-٢، ص٥٤٤.

«وجهز المحمل وخلع على المتوجه به إلى الحجاز».

علماً أننا وجدنا أن الكسوة المخصصة لقبر النبي (ص) قد أنجزت في عام ٦٦٢هـ، وبدأ تجهيز الشمع والبخور والزيت والطيب، كما سنرى فيما بعد، ضمن الاحتفالات المرافقة لمحمل دمشق.

«وفي شهر رمضان أنجزت كسوة قبر النبي صلى الله عليه وسلم، وتعين سفرها مع الطواشي جمال الدين محسن الصالحي، ووقع الشروع في تجهيز الشمع والبخور والزيت والطيب»[٣٠].

على أن الكسوة المخصصة للكعبة في العام ٦٦١هـ قد عرفت احتفالاً وموكباً ودورة كما يبدو من الخبر.

«وعُملت كسوة الكعبة على العادة وحُملَت على البغال وطيف بها في القاهرة ومصر وركب معها الخواص وأرباب الدولة والقضاة والفقهاء والقراء والصوفية والخطباء والأئمة وسُفِّرت إلى مكة في العشر الأوسط من شوال»[٣١].

---

(٣٠) المقريزي، السلوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، ج١، ق١، ص٥١٢.
الكسوة عبارة عن قماش أسود وسميك مخيط من ٨ قطع ويطوق ثلثها الأعلى آيات من القرآن، وموشاة بخيوط من الذهب جرت العادة خلال أغلب المراحل التاريخية أن تصنع في مصر وترسل بعدها لمكة المكرمة، ومع ظهور عادة المحمل أصبحت ترافقه، كما حمل المحمل الدمشقي كسوة الحجرة الشريفة المرسلة من السلطان العثماني التي ظلت تصنع في مصر حتى عام ١٩٢٧، حيث صنعت لأول مرة في مكة تحت الحكم السعودي الجديد، وعند تغيير الكسوة كانت القديمة منها تباع للحجاج، والكتابات بخيوط الذهب توضع تحت تصرف شريف مكة. دولتشين ريزفان، يفيم، الحج قبل ١٠٠ سنة، ص١٨٢.
WERGHIT. Thomas, early travels in Palestine . p 490
للمزيد حول تاريخ إرسال الكسوة عبر العصور راجع الأزرقي، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق: رشدي الصالح حسن ملحن، دار الأندلس، مكة المكرمة، ١٣٨٥هـ.
(٣١) المقريزي، السلوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، ج١، ق١، ص٥٠٢.

ومن خلال سياق هذا الخبر لا نجد ذكراً للمحمل ضمن هذه الاحتفالية العريضة، ونرى أن هذا التقليد قد خرج إلى الوجود على أفضل الاحتمالات بين عامي ٦٦٢-٦٦٣هـ.

فكرة المحمل:

السؤال كبير ومفتوح للعديد من الإجابات والفرضيات، حيث أن هذه الفكرة تستدعي التفكير بأصولها وسبب اختيار هذا الرمز وحده دون غيره.

يرد في الموسوعة الإسلامية أنها أتت من أواسط آسيا، حيث نرى نموذجاً من الجلد قريباً من المحمل يدعى «قُبَّس»، يُحمل على عربات في السهوب وعلى الأغلب كان له قيمة ودلالة دينية وشرفية.

خلال التعاريف التي أوردناها سابقاً، نلاحظ أن هناك علاقة بين شكل المحمل والخيمة بشكل عام، ولكي لا نخطو بعيداً عن منطقتنا الجغرافية، نستطيع توقع علاقة مع وسائل الركوب التي لها شكل قريب من الخيمة (المحامل أو الهوادج)، والتي اتُخِذت شعارات عند القبائل كما عند قبائل الروالة[٣٢].

ولعل إرسال الملك الصالح أيوب سنة ٦٤٦هـ دهليزه (خيمة كبيرة مخصصة لسلطان) دون أن يرافقه بنفسه إلى دمشق،

---

(٣٢) الموسوعة الإسلامية، مج٦، ص٤٤. عشائر الروالة أو الرولة هي آخر القبائل من عنزة والتي تهاجر من نجد إلى شمال الجزيرة، أشهر رجالاتها في القرنين التاسع عشر والعشرين النوري الشعلان ثم ابنه نواف وإليه تنسب الشعلان بدمشق. للمزيد: النص، إحسان، القبائل العربية وانسابها واعلامها، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠٠٠.

وأن يكون المرافق له مفوضاً من السلطان، يعطينا مؤشراً مهماً يمكننا من الربط مع المحمل وأميره.

وإذا علمنا أنه خلال الطقوس الاحتفالية يتم تزيين القباب (وهي الخيام على الجمال)، نخرج بفرضية أكثر منطقية وإقناعاً للربط بين المعنى الرمزي لسيادة السلطان والمظهر الاحتفالي لهذا التقليد[٣٣]. ونزيد على ذلك فرضية هي أن المهد كحالة انتقالية كان السبب في ظهور المحمل، حيث نفترض استخدام المحمل لوضع المهد داخله ومع مرور الزمن بقي المحمل فقط.

المحامل:

نعرف بشكل مؤكد أن هناك خمسة محامل كبرى أو رئيسية:

- المحمل الشامي.
- المحمل العراقي.
- المحمل اليمني.
- المحمل المصري.
- المحمل العثماني.

بالإضافة إلى محامل صغيرة، وهي عبارة عن محامل بسيطة تحمل صرة المال إلى الحرمين مغطاة بقطعة بسيطة من الجوخ، وأغلبها متأخر من القرن التاسع عشر، ومنها:

---

(٣٣) ابن أبي الفضائل، المفضل، النهج السديد والدر الفريد بعد تاريخ ابن العميد، ص١٠٢.
السلوك في معرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، ج٢، ق١، ص٢٣٠.
فيما يتعلق بالربط بين المحمل والدهليز السلطاني للصالح أيوب، تفضل بلفت الانتباه إليها الأستاذ الدكتور جان ميشيل موتون Jean Michel MOUTON فله جزيل الشكر.

- محمل ابن الرشيد[٣٤].
- محمل ابن سعود.
- محمل ابن دينار[٣٥].

المحمل العراقي:

خرج المحمل العراقي لأول مرة سنة ٧١٨هـ في زمن الخان أبو سعيد[٣٦]، تلاه في العام ٧٢١هـ المحمل الأكثر رونقاً وفخامة، حيث طرز بالذهب والجواهر واللؤلؤ والياقوت[٣٧]. وفي سنة ٧٣١هـ كان الركب العراقي قليلاً ووقف محملهم عن يسار المحمل المصري كما رافقهم فيل يقوده شخص هندي[٣٨]. في العام ٨٧٦هـ تعرض القائمون على المحمل العراقي لإهانة من أمير الحج المصري والشامي، كونهم حاولوا التقدم على المحمل المصري، وهذا ما استدعى أن لا يدخل المحمل العراقي مكة في العام الذي يليه (٨٧٧هـ)، بل وتم اصطحابه مع أميره لمصر، واستمر التشدد في منعه من الصعود لعرفات (سنتي

---

(٣٤) ابن الرشيد هو حاكم حائل (آل الرشيد عموماً هم من قبيلة شمر) قبل سقوطها بيد آل سعود ١٩٢١م.
انظر: السياسة في واحة عربية. إمارة آل الرشيد. مضاوي الرشيد. ترجمة: عبد الإله النعيمي، دار الساقي. لندن، ١٩٩٨.

(٣٥) التبنوني، محمد لبيب، الرحلة الحجازية، ص١٩٢. وابن دينار هو حاكم دارفور (١٨٩٩-١٩١٦) انتهى حكمه بعد اجتياح الإنكليز لمملكته ومن ثم قتله للتوسع. انظر علي دينار آخر سلاطين دارفور. آلن ثيوبولد. ترجمة فؤاد عكود. العالمية للطباعة والنشر، ٢٠٠٥.

(٣٦) الموسوعة الإسلامية، مج٦، ص٤٤. الأنصاري الجزيري، درر الفوائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، ص٢٩٦.
المقريزي، السلوك، محمد مصطفى زيادة، ج٢، ق١، ص١٩٠.

(٣٧) المقريزي، السلوك، محمد مصطفى زيادة، ج٢، ق١، ص٢٢٠.
رفعت باشا، إبراهيم، مرآة الحرمين، ج١، ص٣٠٤.

(٣٨) ابن الجزري، حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه، تحقيق: محمد عبد السلام التدمري، ج٢، ص٤٥٤.

٨٨٠-٨٨١هـ)، حتى وصل الأمر لإدخاله دون ثوب سنة ٨٨٦هـ، واصطحابه لمصر كما حدث سابقاً[٣٩].

المحمل الشيرازي:

خرج مرة واحدة - حسب معلوماتنا - مع المحمل العراقي سنة ٧٥٨هـ[٤٠].

المحمل اليمني:

خرج لأول مرة في العام ٦٩٦هـ[٤١].

وقد شهد في مرحلة ما تنافساً مع المماليك، خاصة في عهد الدولة الرسولية[٤٢]. بدءاً من سنة ٧٨٣هـ استعيض عنه بسنجق ينصب مع بقية السناجق السلطانية بعرفات[٤٣] حتى توقفه، حيث حاولت الدولة العثمانية إحياءه فيما بعد، فخرج لعدة سنوات بين ١٥٤٣-١٦٣٠م[٤٤].

---

(٣٩) الأنصاري الجزيري، درر الفوائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، ص٢٣٧، ٢٣٨، ٢٤١.

(٤٠) الأنصاري الجزيري، درر الفوائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، ص٣١٠.

(٤١) الموسوعة الإسلامية، مج٦، ص٤٤.

(٤٢) حول بني رسول باليمن انظر: علي بن الحسن الخزرجي، العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، تصحيح وتنقيح: محمد بن علي الأكوع، جزأن، مركز الدراسات والبحوث اليمني، ١٩٨٣.

(٤٣) الأنصاري الجزيري، درر الفوائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، ص ٤٤٨.

(٤٤) G.Einstein, Conference6. pp907-908

الأنصاري الجزيري، درر الفوائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، ص٤٤٨.

رفعت باشا، إبراهيم، مرآة الحرمين، ج١، ص٢٠٥.

المحمل المصري:

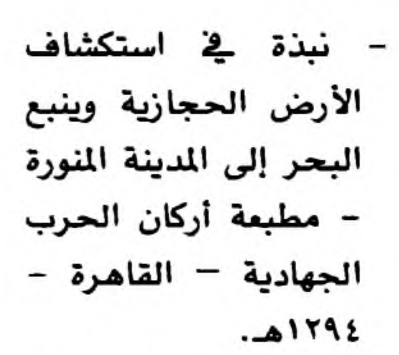


المحمل المصري من الامام.

وهو كما ذكرنا أعلاه بدايةُ هذا التقليد غالباً ومن أرضه انطلق، ومن حيث الوثائق والمعلومات يعد أغناها، خاصة في مجال الصور الفوتوغرافية، حيث قدم لنا محمد صادق باشا معلومات جمة عن المحمل ودورانه بالقاهرة ثم انطلاقه بحراً إلى جدة ومنه إلى مكة عبر ثلاث مؤلفات هامة موثقة بالصور:



المحمل المصري من الجانب.



- نبذة في استكشاف الأرض الحجازية وينبع البحر إلى المدينة المنورة – مطبعة أركان الحرب الجهادية – القاهرة – ١٢٩٤هـ.
- مشعل الحج – وادي النيل – القاهرة – ١٢٩٨هـ.
- كوكب الحج في سفر المحمل بحراً وسيره براً – المطبعة الأميرية ببولاق – مصر المحمية – ١٣٠٢هـ.

ولا ننسى هنا الصور التي صورها أمير الحج اللواء إبراهيم رفعت باشا ونشرها بمجلدين تحت عنوان «مرآة الحرمين».

وتعد أكثر الصور جمالية وديناميكية وتعبيراً عن الأماكن المقدسة الإسلامية[٤٥].

استمر المحمل المصري بالخروج حتى سنة ١٩٢٦م[٤٦].

المحمل الشامي:

سندرس هنا بدايات تسيير هذا المحمل في العصر المملوكي والآراء المتباينة حوله، ثم نعرج على المحامل الأخرى التي ارتبطت به كونها تسير غالباً في نفس الركب، وإن اختلفت بين مستمرة (المحمل العثماني) بعد ظهورها، وأخرى خرجت في ظروف معينة (المحمل الحلبي، المحمل الكركي)، لكنها لم تستمر لأسباب تظل عصية عن الكشف بانتظار خبر شارد يساهم بذلك.

التاريخ:

لا ندري فعلاً متى كانت أول مرة خرج فيها المحمل الشامي منطلقاً من دمشق إلى البقاع المقدسة. حسب الموسوعة الإسلامية كان ذلك في عام ٦٩٢هـ، ويتطابق ذلك مع خبر يرد عند الأنصاري الجزيري ناسباً إياه لسبط ابن الجوزي في كتابه «مرآة الزمان» لنفس العام[٤٧].

---

(٤٥) المعلومات هنا مستقاة من: الحاج. بدر. المملكة العربية السعودية، صور من الماضي، رياض الريس للكتاب والنشر، لندن، ١٩٨٩.
حيث قام بإعادة نشر كتابي «مشعل الحج» و«كوكب الحج» في آخر هذا الكتاب.
رفعت باشا. إبراهيم. مرآة الحرمين. مطبعة دار الكتب المصرية. القاهرة. ١٣٤٤هـ/١٩٢٥م.

(٤٦) الموسوعة الإسلامية. مج٦. ص٤٤.

(٤٧) الأنصاري الجزيري، درر الفوائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، ص٢٨٧.
حلمي. إبراهيم. المحمل. ص١٤.
الموسوعة الإسلامية. مج٦. ص٤٣.

«إن الذي حج هذه السنة من الشام بدر الدين بكتاش المعروف بالطيار وسافر المحمل من دمشق في الحادي عشر من شهر شوال».

فإذا أردنا مناقشة هذا الرأي نجد:

- سبط ابن الجوزي صاحب هذا الكتاب توفي سنة ٦٥٤هـ، ومع الفرض بوجود شخص آخر يحمل نفس الاسم، عدنا لـ «معجم المؤلفين» لرضا كحالة[٤٨]، فلم نجد غيره يحمل هذا الاسم ولديه كتاب تحت هذا الاسم، علماً أن ذيل هذا الكتاب تتوقف أحداثه قبل هذا التاريخ[٤٩].
- بالبحث المتأني توصلنا للمصدر الأساسي للخبر وهو البرزالي في كتابه «المقتفي»، لكن دون ذكر للمحمل، بل ينوه فقط بخروج الركب الشامي[٥٠]، وهذا ما يدفعنا للاعتقاد بأن المؤرخ قد أخطأ بنسبة الخبر للكتاب.

بعد أن ذكرنا ما سبق من آراء نعرض ما توصلنا إليه بعد تنقيب حثيث، حيث استطعنا العثور على تاريخ أقدم عند اليونيني في كتابه «ذيل مرآة الزمان» وهو ٦٨٢هـ، يذكر فيه

---

(٤٨) كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، ج٥، ص١٥٧-١٥٨.
وانظر كذلك عن ابن الجوزي مقدمة المحقق حول حياته: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، تحقيق: مسفر بن سالم بن كريم الغامدي، جامعة أم القرى، مكة، ١٩٨٧.

(٤٩) المقصود به: العيني، بدر الدين محمود، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق: محمد أحمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧-١٩٩٠، والذي تتوقف أحداثه سنة ٦٨٦هـ.

(٥٠) الأنصاري هو مؤرخ مخضرم عاصر أواخر المماليك وبدايات الحكم العثماني، خط كتابه نقلاً عن كثير من المصادر، ونرجح هنا أنه قد وقع بهذا الخطأ عندما نقل من أحد ذيول مرآة الزمان وظن أنه هو الكتاب نفسه.
البرزالي، المقتفي، تحقيق: عبد السلام تدمري، ج٢، ص٣٢٨.

خروج المحمل من دمشق في منتصف شوال: «خرج محمل الحج من دمشق وأميرهم صارم الدين المطروحي في منتصف شوال»[٥١]، فعلى الرغم من غياب النص الأقدم من هذا التاريخ حتى الآن، فإننا نتوقع أن التقليد يعود لفترة أقدم من ذلك، خاصة إذا قبلنا افتراضاً أن المحمل في بداياته كان يأتي فقط من مصر، لكن حيث أن الغاية الأساسية منه سياسية بالإضافة إلى التأكيد على النفوذ والأمن، فمن الأجدى أن يسير كذلك من دمشق، العاصمة الثانية والمدينة الأهم في الشام، والتي كان الصليبيون يحتلون أجزاء منها، والخطر المغولي ما زال رابضاً على تخومها الشرقية، بالتالي فإن خروج المحمل منها هو تأكيد أوثق للهدف المرجو منه، علماً أننا يمكننا التوقع أنه في البداية لم يكن يخرج سنوياً وبشكل مستمر، إلى أن انتظم في خروجه مع المحمل المصري، ومع ذلك فإننا لا نعطي رأياً جازماً بالمسألة تاركين ما توصلنا إليه لمن يأتي بعدنا .

المحمل العثماني (الرومي):

يُعدُ السلطان العثماني سليم الأول أول من أطلق المحمل العثماني سنوياً ، حيث أخذ يخرج بنفس موكب الحج مع المحمل الشامي سنة ٩٢٣هـ.

فلقد شهد الموسوي أن الركب الشامي سنة ١٠٢٩هـ قد جاء بالمحمل العثماني معه[٥٢].

---

(٥١) اليونيني. كتابه ذيل مرآة الزمان. ص١٨١ .
كما في الحالة السابقة يصمت البرزالي، المصدر الأساسي لهذا الخبر كما نعتقد. عن ذكر المحمل منوهاً فقط بالركب على الرغم من ذكره للمحمل في مناسبات أخرى. البرزالي. المقتفي. تحقيق: عبد السلام تدمري. ج٢. ص٤٠٢.
(٥٢) الموسوي. رحلة الشتاء والصيف. تحقيق: محمد سعيد الطنطاوي. ص٢٣ .

وكانت الاحتفالات به في الآستانة لا تقل عن تلك التي بشام شريف أو القاهرة، بل وقد امتازت تلك الاحتفالات بحضور السلطان شخصياً، وكان يأخذ بنفسه قياد جمل المحمل ويسلمه لأمين الصرة، حتى إذا عاد المحمل يسلم أمين الصرة القياد مرة أخرى للسلطان في جوٍ من الموسيقى.

وعند وصوله إلى مكة كان يأخذ مكانه في الحرم أسوة بالمحملين السوري والمصري[٥٣].

المحمل الحلبي:

أقدم ذكر للمحمل الحلبي هو عند الأنصاري الجزيري في كتاب «درر الفرائد» سنة ٧٨٧هـ: «وحج الحلبيون بمحمل على صفة المحامل لم يعهد ذلك قبلها»[٥٤].

وعند ابن قاضي شهبة: «قدم الركب الحلبي ومعهم محمل سلطاني وهذا شيء لم يعهد»، وفي حين أننا لا نستطيع أن نعرف ما إذا كان هناك محمل ينطلق سنوياً من حلب، نستطيع القول أننا متأكدون من ذلك سنتي ٧٩٧ و٧٩٨هـ[٥٥]، بل وزادوا في العام الأول سبيلاً كما في المحمل الدمشقي الرئيسي.

---

(٥٣) السنوسي، محمد، الرحلة الحجازية، تحقيق: علي الشنوفي، ج٢، ص١٢٧. حول الصرة وأمينها انظر وظائف الركب في العصر العثماني.

(٥٤) الأنصاري الجزيري، درر الفوائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، ص٣١٤.

(٥٥) ابن قاضي شهبة، تاريخ ابن قاضي شهبة، تحقيق: عدنان درويش، ج٣، الخبر الأول حوادث سنة ٧٨٧هـ، ص ١٦٣. الخبر الثاني حوادث سنة ٧٩٧هـ، ص٥٢٢. حوادث سنة ٧٩٨هـ، ص٥٨٧.

ومما يؤكد استقلالية الركب الحلبي هو وجود أمير للركب منفصل بسلطاته عن الدمشقي يعين بمرسوم من السلطان وله نموذج عند القلقشندي(٥٦) ويكون عادة من أمراء الطبلخانات(٥٧) (راجع الملحق رقم١).

ومما يؤكد عدم استمرارية المحمل الحلبي قول ابن قاضي شهبة في حوادث سنة ٨٠٠هـ في تعليقه على قدوم الركب الحلبي دون محمل: «وكانوا في هذه السنوات الثلاث يجيئون بمحمل»(٥٨)، لكن على الرغم من ذلك نلاحظ أن الركب الحلبي يعود ليؤكد استقلاليته عندما انفصل سنة ٨٩٩هـ عن الركب الشامي واختار «طريق راشدة فوجد ماء كثيراً بخلاف الركب الشامي»(٥٩).

المحمل الكركي:

وصف المحمل الكركي سنة ٨٦٩هـ بأنه محمل لطيف ولا يوجد ذكر آخر له، سواء قبل تلك السنة أو بعدها سوى خروجه سنة ٨٨٤ هـ(٦٠).

يبدو لنا أن هذا المحمل قد خرج في مناسبة معينة ولظروف معينة أدت لعدم تكراره.

---

(٥٦) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج١٢، ص٣٥٤.

(٥٧) الطبلخاناه: معناه بيت الطبل ويشتمل على الطبول والأبواق وتوابعها من الآلات أما أمير الطبلخانه فيكون من الطبقة الثانية من الأمراء حسب القلقشندي، القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج٤، ص١٣-١٥.

(٥٨) ابن قاضي شهبة، تاريخ ابن قاضي شهبة، تحقيق: عدنان درويش، ج٣، ص٦٦٠.

(٥٩) ابن طولون، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، وضع الحواشي: خليل المنصور، ص١٢٧.

(٦٠) الأنصاري الجزيري، درر الفوائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، ص٢٣٤، ٢٣٩.

أخيراً لا بدّ أن نشير هنا إلى أن الركب الشامي للحج تكوّن في فترة من الفترات من اجتماع عدة رُكُب كانت تدخل مكة منفردة، حتى أن العسقلاني في أخبار سنة ٨٤٥هـ يورد دخول الرُكُب لمكة كالتالي:

الفزاوي - الشامي - الحلبي - الكركي - الصفدي[٦١].

للتنويه فقط نذكر أن الركب الشامي يتكون في حالته الطبيعية من اجتماع عدة رُكب، لكن المتميز هنا هو ذكر دخولها منفردة بالتتالي وليس تحت اسم جامع هو الركب الشامي.

تقاليد المحمل:

امتازت تقاليد المحمل بمشاركة واسعة من مختلف أطياف الطبقات السياسية والشعبية، وكان ينشر الفرحة والبهجة حيثما مر وحل منذ بدء تسييره. سنحاول في هذا المبحث تقديم هذه التقاليد في العصر المملوكي وصولاً لما آلت إليه من تضخم في الأهمية وبالتالي الإعداد والتحضير في العصر العثماني.

تقاليد المحمل المملوكي:

لا يوجد لدينا الكثير من المصادر حول تقاليد المحمل في العصر المملوكي، فما بين أيدينا من تفاصيل دقيقة يعود للعصر العثماني نظراً للغزارة الكبيرة في المصادر وكثرة الرحالة من

---

(٦١) ابن حجي، تاريخ ابن حجي، تحقيق: أبو يحيى عبد الله الكندري، ص ١٦٨ .
ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر بأبناء العمر. تحقيق: شرف الدين أحمد. مج٩. ص١٦٨ .

غربيين ومسلمين، والذين أثروا هذا الموضوع كتابة ووصفاً، لكن ولحسن الحظ حفظ لنا واحد من أهل الشام يوميات دقيقة أمدتنا بمعلومات قليلة لكنها تعتبر ذات أهمية كبيرة في وسط الندرة وانعدام المعلومات عند مؤرخين آخرين معاصرين عايشوا أيامها وأحداثها لكنهم صمتوا أو لم تصلنا كتاباتهم وضاعت في خضم الزمن أعمالهم.

وهذه الوثيقة التي تذكر المحمل في العصر المملوكي هي يوميات ابن الجزري شمس الدين أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن أبو بكر ت ٧٣٨هـ في كتابه «حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه». وما يعطي هذه اليوميات أهميتها كون الحوادث وأغلب الوصوفات هي من شاهد عيان، لذلك اعتمدنا على الجزأين الثاني والثالث من الأجزاء الثلاثة واللذين يغطيان الأعوام الأخيرة من حياة المؤلف (بين ٧٢٥-٧٣٨هـ). لا بد من الإشارة هنا أن الذهبي أعد مختصراً للكتاب، إضافة لمؤرخ آخر نقل عنه ابن الجزري كثيراً وهو معاصر له، ألا وهو البرزالي في كتابه «المقتفي» ومن تحقيق نفس المحقق لكن وصوفاته نادرة مختصرة فقيرة بالمعلومات.

علماً أن المواد التي شملها البحث فيما يتعلق بهذا العصر اعتمدت على العصر العثماني وذلك في محاولة لمعرفة ظواهرها الأقدم.

الدورة:

هي جولة على نواح وولايات خاضعة إدارياً لسلطة دمشق، وهي المناطق الجنوبيةُ على الأغلب بغرض تحصيل الأموال منها وبالتالي فرض السيطرة والتبعية للمركز. فيما يتعلق

بالعصر المملوكي وجدنا عند ابن حجي خبراً يعود لسنة ٧٨٩هـ عن عودة النائب من السرحة، وهو الاسم الأقدم كما يبدو، نحو بلاد القدس والرملة، وعند ابن حجر العسقلاني في «إنباء الغمر بأبناء العمر» ثلاثة نصوص تعيننا على فهم هذا المصطلح.

في سنة ٨٠٧ هـ مرتين(٦٢):

«وأنعم شيخ على نوروز بالدورة التي جرت العادة بها في بلاد الشام».

«أعطى شيخ، الأمير نوروز الدورة في بلاد حوران والرملة».

في سنة ٨١٣ هـ:

«فأذن لسودون بقجة أن يخرج إلى الدورة فيحصل منها ما يمكن تحصيله ويأخذه لنفسه».

من النصوص نستنتج أن السلطان يعطي هذا الأمر للأمير الذي يختاره وذلك كنوع من الإنعام كون التحصيل جيداً ونطاق هذه الدورة كما رأينا هو في المناطق الجنوبية (القدس، حوران، الرملة)، وهو النطاق الذي تتواجد فيه العناصر البدوية والتي تعد من المحطات الهامة على طريق الحج، لذلك كان لا بد من تأكيد السيطرة عليه بشكل مستمر كما نلاحظ من كلمة «على العادة»، والمفاجأة أن التحصيل يكون لصالح شخص ولا يستغل في تجهيز قافلة الحج، أي أنها في البدايات ارتبطت

---

(٦٢) ابن حجر العسقلاني في إنباء الغمر بأبناء العمر. تحقيق: شرف الدين أحمد. مج٥، ص٢٠٤-٢١٤، مج٦، ص٢٠٣-٢٠٤.

بالحج فقط لضمان الدرب الآمن، والأمر نفسه يتفق مع وقت الخروج فهو غير محدد، حيث يرد الإنعام بالخبر الأول (عند ابن حجي) والثاني بشهر رجب، أمّا في الثالث فقبل ذي القعدة، وفي الأخير في محرم حيث لا نجد ارتباطاً واضحاً مع تواريخ الحج المحددة، بل نجد أن الخبرين الأولين عند ابن حجر العسقلاني هما في نفس العام، وإذا كان هناك من تقليد يمت بصلة للحج فهو الثاني أي الخروج في شهر رجب إلى بلاد حوران والرملة، وهو الخروج الأقرب لما سيستمر في العصر التالي.

التحضيرات للسفر:

لا نعلم الكثير عن التحضيرات التي يفترض أن تسبق الخروج إلا أن هناك مصطلحاً يرتبط بموضوعنا ساد في ذلك العصر هو «الإقامة»، وهي ما يلزم الجند أو لنقل المسافر عموماً من المؤن والعلف لما يُركب، وقد استخدم هذا المصطلح في موضوع الحج، وأول إشارة تفيدنا حوله وجدناها عندما حج بيبرس سنة ٦٦٧هـ حيث يورد ابن إياس: «فأخذ الإقامات التي عبأها لهم نائب غزة»[٦٣]، فحين يرغب السلطان بالحج تجري الأمور على قدم وساق للتجهيز والإعداد للرحلة، وعلى الرغم من كون هذه التحضيرات باذخة ومخصصة فقط لحالة السلطان لكنها تعطينا فكرة عن أسلوب القيام بالترتيبات والاستعدادات، كما في سنة ٧٤٧هـ حيث حدث ما يشبه الصراع حول حج السلطان بين نسائه ووالدته ضد الأمراء الذين أقنعوا السلطان بعدم الذهاب

---

(٦٣) ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، ج١، ص٣٣٠.

فـ«كتب إلى الأعمال باسترجاع ما قبضه العرب من كرى الجمال ورمى البشماط الذي عمل على الباعة». لكن الحلف الآخر عاد وأقنع السلطان بضرورة الذهاب فعاود الكتابة «لنائب الشام وحلب وغيرهما أنه لابد من السفر للحجاز، وأمرهم بحمل ما يحتاج إليه. واشترى السلطان الجمال»، «ورسم له عربان مصر وتفرقة المال عليهم لكرى أحمال الشعير والدقيق والبشماط، فتجدد الطلب على الناس، وحملت الغلال إلى الطحانين لعمل البشماط والدقيق، واستعيد ما رمي»[٦٤].

مما سبق نستطيع أن نفهم أن السلطان أو من هو مخول بهذا الأمر يأمر الولاة بالتحضير فيقومون بشراء وتحضير ما يلزم للقافلة من المؤن واستئجار الجمال اللازمة لذلك وبتحضير الإقامات في الولايات التي يمر الركب بها، أو إرسال أحدهم كي يقوم بهذه الاستعدادات. الشيء المشترك هنا هو انتقاء المحطة لوضع المؤن حيث تسير بعدها القافلة معتمدة على ما تحمله.

أمير الحج:

جرت العادة أن يكون أمير الحج من الطبقة الأولى من الأمراء الذين يعيشون في دمشق غالباً، وقد يتولاها نفس الشخص أكثر من مرة، ولم يكن هناك ارتباط بين منصب النيابة وإمارة الحج في أي فترة من الفترات، مثلما سيمر في العصر العثماني. ومسؤولية أمير الحج الأساسية هي الذهاب للأراضي المقدسة

---

(٦٤) السلوك في معرفة دول الملوك. تحقيق: محمد مصطفى زيادة، ج٢، ق٢، ص٧٠٢-٧٠٨. يقصد بالرمي إجبار الباعة على أخذه. والبشماط أو البقسماط ما يشبه البسكويت في أيامنا.

ثم العودة سالماً، إضافة لضبط الركب وإحلال النظام كما جرى سنة ٧٣٦هـ عندما حصلت مشاكل في السوق بمنىً، فما كان من أمير الركب إلا أن جرد العسكر ثم قبض على مثيري الفتنة والسارقين وقام بقطع أيديهم بعد إقرارهم تحت التعذيب ورد المسروقات لأصحابها[٦٥].

قاضي الركب:

يعيّن من قبل قاضي القضاة، وفي بعض الحالات كان يعين بتزكية من أمير الركب. ولا يُشترط مذهبٌ معيّنٌ في هذا المنصب، كما وجدنا من أسماء القضاة في العصر المملوكي، في كلٍ من كتابي ابن قاضي شهبة وابن الأثير.

وكما لاحظنا عند الحديث عن مهام أمير الحج، نجد أنه يأخذ الدور المناط بالقاضي دون حتى أن يعير وجوده أية أهمية، فهو القاضي والحكم، وخير معبر عن هذا الوضع هو كلام ابن الجزري حول شكر الناس لأمير الركب سنة ٧٢٩هـ: «وشكرت سيرة أمير الركب وأنه ما قطع ولا صلب ولا ضاع لأحد عقال بعير وكان إذا وقع السارق يسيره إلى القاضي يعمل فيه حكمه ومنهم من يحلفه أنه ما يعود يسرق ويهبه شيئاً ويسيبه»[٦٦].

---

(٦٥) ابن الجزري، حوادث الزمان وانبائه ووفيات الأكابر والأعيان من ابنائه، تحقيق: محمد عبد السلام التدمري، ج٣، ص٨٥٦.

(٦٦) ابن قاضي شهبة، تاريخ ابن قاضي شهبة، تحقيق: عدنان درويش، ج٣، ص٥٨٨.
ابن الجزري، حوادث الزمان وانبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه، تحقيق: محمد عبد السلام التدمري، ج٢، ص٣١٨.
كما يمكن الرجوع لكشاف المعد من قبل المحققين والبحث عن قضاء الحج من أجل التعرف على من تولى هذا المنصب خاصة لدى ابن قاضي شهبة.

التقاليد والاحتفالات:

طبع المحمل المجتَمع في دمشق المملوكية تقاليد سكانها وكوّن ذاكرتهم في عدة مواكب كان يسبقها خروج السنجق للجامع الأموي وهو ما سنفتتح به هذا المحور.

السنجق وتقاليد الحج:

السنجق في مكة:

إن السنجق، كتقليد يرتبط بالحج، نراه في فترة مبكرة مقارنة بالمحمل، لكنه أساسي في التقاليد المرافقة لشعائر الحج بمكة، حيث يكون التقديم دائماً لسناجق الخليفة وخاصة عند صعود عرفة، تليها سناجق الملوك الآخرين، كما حدث مع أمير الركب الشامي سنة ٥٨٣هـ حين رفع أعلام سيده صلاح الدين يوم عرفة ودق بالكوسات (الصنوج)، الأمر الذي رفضه أمير الركب العراقي الذي هو بمثابة مندوب الخليفة والذي له السلطة الروحية على الجميع، فتقاتلا وكانت الغلبة للعراقي وقتل الآخر[٦٧]. يتكرر المشهد سنة ٦١٨هـ لكن الغلبة في الموقف هذه المرة كانت للأيوبيين حيث قام ملك اليمن الأيوبي بمنع أعلام الخليفة من الصعود لعرفات ثم سمح لها بعد أن تلقى الهدايا. في سنة ٦١٩هـ ازداد الموقف حدة بتقديم أعلام والده على أعلام الخليفة ضارباً بذلك عرض الحائط التقاليد المتبعة سابقاً ومقوضاً السلطة التي يتمتع بها الخليفة[٦٨]. وفي شروط

---

(٦٧) ابن الأثير. تاريخ ابن الأثير. ج١٣. ص٥٥٩.

(٦٨) الأنصاري الجزيري، درر الفوائد المنظمة في اخبار الحاج وطريق مكة المعظمة. ص٢٧٤-٢٧٥.
ابن فهد. محمد. إتحاف الورى بأخبار أم القرى. ج٣. ص٣٥.
الفاسي. العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين. ج٥. ص٣٨٣-٣٨٤.

الصلح بين المماليك وصاحب العراق أبي سعيد سنة ٧٢٠هـ نرى كيف أنه طلب أن «يسير الركب من العراق إلى الحجاز في كل عام بمحمل ومعه سنجق فيه اسم صاحب مصر مع سنجق أبي سعيد ليتجمل بالسنجق السلطاني»، وفعلاً تمت الموافقة، حيث تم «تجهيز السنجق السلطاني ليسير مع الركب إلى الحجاز، فسير سنجق حرير أصفر بطلعة ذهب»[٦٩]. وهذا ما يعطي هذه الأهمية للسنجق والتي هي كذلك مظهر أساسي من مظاهر السيادة والسيطرة إضافة للاعتراف بالتبعية من قبل الآخرين.

السنجق والمحمل:

أما عن السنجق وعلاقته بتقاليد المحمل قبل التوجه إلى مكة، فقد شكّل الإشارة الأولى للإعلان عن الحج والاستعداد للخروج في القافلة، والذكر الأقدم لذلك كان عند البرزالي سنة ٦٩٣هـ:

«وفي يوم الجمعة التاسع والعشرين من رجب، أُحضر سنجق الحجاج إلى جامع دمشق»[٧٠].

هذا التقليد استمر قروناً طيلة الفترة المملوكية، نراه عند ابن صصرى سنة ٧٩٥هـ[٧١]، وأخيراً عند ابن طولون حيث يعطينا وصفاً للسنجق الجديد الذي استخدمه العثمانيون بعد

---

(٦٩) السلوك في معرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، ج٢، ق١، ص٢٠٩-٢١١.

(٧٠) البرزالي، المقتفي، تحقيق: عبد السلام تدمري، ج٢، ص٣٦٣.

(٧١) ابن صصرى، الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية، تحقيق: وليم م. برينر، ص١٣٧.

احتلالهم للمدينة للإعلان عن بدء التحضير للحج سنة ٩٢٣هـ كمحاولة لقطع صلة المدينة وسكانها بحكامها السابقين، ومكان وضعه الدقيق من الجامع:

«طالعت الأروام من القلعة سنجقاً أحمر، ليس عليه طراز، وفي رأسه هلال، شبه سنوبرة، من فضة مطلية بذهب، إلى الجامع الأموي، ونصبوه في الباب الأوسط من الأبواب الثلاثة التي تحت قبة النسر، على العادة في وضعه، وغيروا سنجق الجراكسة، وهو كان من حرير أصفر أطلس، بطرز مزركش، بشراريب، وهلاله من ذهب، شبه نعل المصطفى، وكان أكثر بهجة، وخرجت معه النقارات والمشعلين الملبسين على عادة الجراكسة»[٧٢]. إذاً من خلال النص نعلم أنه في أواخر العهد المملوكي كان للسنجق موكب منفصل مبهرج، يبدأ كما نظن من القلعة حيث سيكون الأمر كذلك في الفترة العثمانية الأولى، بمسار مباشر حتى الجامع هو ما يؤكده ابن طوق في مذكراته[٧٣].

---

(٧٢) الأروام: هم العثمانيون حسب العرف الشامي خاصة في الفترة الأولى لدخولهم كونهم سيطروا على الأماكن التاريخية للإمبراطورية البيزنطية. كما السلاجقة الذين أسسوا دولتهم بالأناضول وعرفوا كذلك بسلاجقة الروم.
النقارات: من الأدوات الموسيقية المصنوعة من النحاس، والأقرب لها هي الكوسات أي الصنوج النحاسية. أما المشعلون فهم فئة مسؤولة عن تنفيذ أحكام السلطان بالأشخاص الذين تقع عليهم.
ابن طولون. مفاكهة الخلان في حوادث الزمان. وضع الحواشي: خليل المنصور. ص ٣٧١.
حسب القلقشندي يذكر الأعلام والرايات التي كانت تستخدم في عهد الأيوبيين والمماليك وهي ثلاث:
راية صفراء مطرزة عليها اسم السلطان وألقابه وتسمي العصابة.
راية في رأسها خصلة من الشعر تسمى الجاليش.
رايات صفر صغار تسمى السناجق.
القلقشندي. صبح الأعشى في صناعة الإنشا. ج٤. ص٨.
(٧٣) ابن طوق. التعليق. تحقيق: جعفر المهاجر. ج٢. ص١٠٥٥. ج٣. ص١٣٥٥.



موكب محمل الحج الدمشقي في طريق الميدان متوجهاً نحو الأراضي المقدسة أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين.


592. — DAMAS. — Départ de la Caravane pour

بيت المحمل:

أطلقنا مجازاً على المكان الذي يبقى فيه المحمل طوال العام اسم «البيت»، معتمدين على نص ابن صصرى حيث يرد عام ٧٩٤هـ عن دخول المحمل دون موكب ووضعه في القلعة بغباره[٧٤]: «لم يدخل بيته»، ونتوقع أن يكون موقعه في محيط المرجة الحالية، أي أن الموقع لم يتغير في الفترة العثمانية بل ظل هو نفسه الكيلار.

موكب المحمل:

عرف المحمل ثلاثة مواكب رئيسية: في البداية عند دورته إيذاناً ببدء التحضير للحج، ومن ثم خروجه، وعودته، لكن الطابع المميز لهذه الفترة هو وجود السبيل في التقاليد المتعلقة به، لذلك لابد من دراسته أولاً.

السبيل والمحمل:

نجد في المصادر التاريخية أن السبيل كان يرسل بداية مع كسوة الكعبة، وذلك في البدايات الأولى قبل انطلاق المحمل بانتظام، كما ورد مرافقاً لكلمة المحمل في نص تفويض الخليفة لسنة ٦٥٩هـ (الوارد سابقاً) وعند اليونيني سنة ٦٦٤هـ، حيث أن الظاهر أرسل الكسوة والسبيل إلى مكة كالعادة[٧٥]. في «السلوك» للمقريزي نجد موكباً للكسوة والمحمل والسبيل في القاهرة، لكن في سنة ٦٨١هـ[٧٦]، وحسب ابن الجزري، كان السبيل مرافقاً المحمل في

---

(٧٤) ابن صصري، الدرة المضينة في الدولة الظاهرية، تحقيق: وليم م. برينر، ص١١٢.

(٧٥) راجع فقرة تاريخ المحمل حول التفويض. اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٣٤٦.

(٧٦) ابن الجزري، حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه، تحقيق: محمد عبد السلام التدمري، ج١، ص٦١.

كل نشاطاته، وأقدم تاريخ يثبّت ذلك - حسب ما هو منشور وتم التحقق منه - هو سنة ٦٩٠هـ[٧٧]، واللاحقة المعهودة (على العادة) تمكننا من التأكيد على أن الارتباط بين المحمل والسبيل كان منذ البدايات، أما متى اختفى من الساحة فهو أمرٌ غير معروف.

إذا كان وصف القلقشندي للمحمل قد وصلنا من الفترة المملوكية وذكرناه سابقاً، فإن السبيل لم يصلنا عنه - كما نعلم - وصف أو معلومات تساعدنا على إعطاء تصور عنه.

دورة المحمل:

المفهوم:

يقصد بالدورة الطواف حول دمشق من ظاهرها بحيث يتم المرور أمام الأسوار، والواضح من هذا التقليد أن له دلالة رمزية لحفظ المدينة والأسوار وحمايتها من الأعداء، حيث يرتبط كما نعتقد مع تقليد أقدم ظل قيد الممارسة، وهو ما نراه عند اقتراب وصول تيمورلنك إلى المدينة: «ودار- قاضي المدينة - السور وبين يديه المؤذنون يكبرون ومعهم المصاحف»، والربط بين التقليدين نعتبره فرضاً يضاف إلى غيره[٧٨].

تاريخ الخروج:

نلاحظ من خلال الجدول المرافق والمستخلص من كتاب ابن الجزري - وهي المعلومات غير البعيدة عن البدايات الأولى - أن

---

(٧٧) السلوك في معرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، ج١، ق٢، ص٧١٠.
(٧٨) ابن قاضي شهبة، تاريخ ابن قاضي شهبة، تحقيق: عدنان درويش، ج٤، ص١٦١.

موعد هذا الحدث كان غالباً في العُشر الأول من شهر رجب مع تأخير متكرر أو تقديم نادر.

المشاركون:

كان الحضور يرتكز على الطبقة المملوكية بكامل أصنافها، ثم وجهاء المدينة وأعيانها الذين يحتل بعضهم المناصب الإدارية، وطبعاً ذوي المناصب الدينية كون الحدث دينياً بالمقام الأول، وأخيراً عامة الشعب الذين يشكلون الجمهور الحاشد المتعطش للتجمهر ورؤية الموكب.

إن الوصوفات المقدمة المعتمدة كما ذكرنا أعلاه هي لابن الجزري والتي تختلف بذكر الحاضرين ودائماً نشاهد عبارة «ومن جرت العادة بحضورهم»، أي أنه حتى لو لاحظنا غياب عدد من الشخصيات تأتي هذه الكلمات لتسد النقص.

في مقدمة المشاركين كان نائب السلطنة ممثل السلطان في دمشق والمتربع على قمة الهرم السلطوي في المدينة، ثم مساعدوه كالصاحب والحجاب وبقية الأمراء خاصة المعني الأول بالحدث أمير الركب ومن معه من عساكر، والذين شكلوا بما يؤدونه مادة العرض الأساسية، وطبعاً لم يكونوا وحدهم، حيث اشتركت فرق أخرى في الاستعراض كجند والي البر ووالي البلد[٧٩]،

---

(٧٩) والي المدينة الذي هو مسؤول الشرطة في المدينة. أما والي البر فلا نعلم تماماً ما هو، وحسب دهمان فهو والٍ يحكم عدة مدن تابعة لمدينة كبيرة كدمشق. وكما نرى يبدو المنصب ذا مهمة عسكرية بحتة تقابل مهمة والي البلد لكن خارج المدينة. اي الولاية عامة. لم يذكره القلقشندي في تعداده للوظائف بالشام. والحجاب نقلاً عنه كانوا ثلاثة. القلقشندي. صبح الأعشى في صناعة الإنشا. ج٤. ص١٨٤-١٩٤. دهمان. محمد احمد. معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي. ص١٥٤.

والقلعية المنسوبين لقلعة دمشق، والركبدارية والنفطية الذين كانت هناك عناية دائمة لإظهارهم[٨٠]، إضافة لأعيان المدينة، بينما الحضور الأساسي للطبقة الدينية يتمثل بالقضاة، القراء، الأئمة والمؤذنون، والغريب هو وجود السقائين الذي لا نربط مشاركتهم هنا سوى بالسفر مع الركب. أما بالنسبة لتوزيع المشاركين، فلا يوجد سوى وصف عابر مختصر ووحيد سنة ٧٣٧هـ[٨١] يذكر أن كل من ذكرناهم من كبار المماليك والأعيان إضافة للمراتب الدينية يتوضعون أمام المحمل والسبيل، بينما غالبية العسكر في الخلف. لكن كما إن لكل قاعدة شواذاً فقد يحدث بمحض الصدفة أن يتغيب النائب نفسه يرافقه بعض الأمراء كما حدث في عامي ٧٣٥-٧٣٧هـ ومع ذلك فقد كان الموكب متميزاً جداً[٨٢].

مسار الموكب:

مسار الموكب (أو الدورة) حول دمشق غير واضح، لكن نستطيع أن نستنتج أنه يبتدئ من القلعة ثم يطوف حول الأسوار وأمام بوابات المدينة، لأن ابن الجزري والبرزالي لا يفتآن يرددان «حول البلد، ظاهر البلد» ليعودا مرة أخرى إلى القلعة (المحمل

---

(٨٠) الركبدارية: يبدو أن المصطلح مشتق من الركب لذلك نعتقد أنها فرقة من الخيالة. أما النفطية فينسبون لعملهم بالنفط لكن لا نعرف تماماً إذا كان المقصود النفط كسائل أم البارود. حيث يشير الريحاوي إلى أن النفط قصد به كذلك البارود وهو ما نتوقع استخدامه هنا لجذب المتفرجين. الريحاوي، عبد القادر، قلعة دمشق، ص١٣١.

(٨١) ابن الجزري، حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه، تحقيق: محمد عبد السلام التدمري، ج٢، ص٩٠٠.

(٨٢) ابن الجزري، حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه، تحقيق: محمد عبد السلام التدمري، ج٣، ص٧٦٥-٩٣٢.

والسبيل) بانتظار التحرك نحو الأراضي المقدسة، ومن تلك المحطات حسب النصوص سوق الخيل[٨٣].

الاستعراض:

اختص به العسكر من المشاركين بمختلف أنواعهم المذكورين أعلاه، ما شكل عامل الجذب الأساسي للجمهور الغفير الذي كان يرافق الموكب.

أهم الفقرات التي تكررت واستمرت في أكثر من موكب هي اللعب بالنفط، واختص بها المرافقون لواليي البر والبلد بداية، ثم نرى مشاركة القلعية والنفطية (سنة ٧٣٤هـ). أما عن ماهية هذه الألعاب فإننا نعتقد أنها كانت كما في استعراضات اليوم، من نفث النار وغيرها مما يشد الانتباه ويأخذ الطابع الكرنفالي، حيث نرى المؤلف يذكر ثلاثة صيغ هي: «اللعب بالنفط»، «اللعب بالنار»، و«اللعب بالنفط والنار»[٨٤]، وهناك التطاعن بالرمح كما جرى سنة ٧٣٦هـ حيث «تطاعنوا –القلعية- قدام نائب السلطنة بسوق الخيل وحوالي البلد المحروس»[٨٥]. ولا بد أن

---

(٨٣) ابن الجزري، حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه، تحقيق: محمد عبد السلام التدمري، ج٣، ص٨٥٦.
سوق الخيل في منطقة تحت القلعة ظهر مع ازدهار المناطق القريبة من القلعة وتوضع غالبية الأسواق التي لها علاقة بالفروسية والحياة العسكرية للجند هناك، كما احتوت على ساحة للاستعراضات العسكرية الدورية. راجع البدري، نزهة الأنام، ص٦٢-٦٥. البرزالي، المقتفي، تحقيق: عبد السلام تدمري، ج٣، ص٢٥٦-٢٧٥، ج٤، ص٧٥، ١٤٧، ٤٤١.

(٨٤) ابن الجزري، حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه، تحقيق: محمد عبد السلام التدمري، ج٣، ص٥٩٧، ٦٧١، ٨٦٤.

(٨٥) ابن الجزري، حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه، تحقيق: محمد عبد السلام التدمري، ج٣، ص٨٥٦-٩٣٣.

الأمر لم يتوقف على هذه اللعبة فحسب، بل إن الكثير من ألعاب الفروسية مما كان يتم استعراضه في الميادين والمواكب كان يتم أداؤه للاستحواذ على إعجاب الحشود.

لا ننسى هنا التأكيد أن الطابع الاحتفالي قد فرض الاعتناء بمظهر المشاركين خاصة العسكرية منهم، ولدينا العديد من الشواهد التي سنوردها هنا لإظهار الأهمية القصوى لهذا الجانب:

- سنة ٧٢٦هـ: «رسم نائب السلطنة لواليي البر والبلدان يعرضوا لابسين العدد والجنود».
- سنة ٧٣٣هـ: «وخرج أمير الحج في تجمل كثير وكان يوماً مشهوداً للفرجة عليهم»، «وكانوا جماعته ملبسين».
- سنة ٧٣٤هـ: «ولبسوا القلعية والنفطية».
- سنة ٧٣٦هـ: «ولبسوا القلعية الجواشن والزرديات [...] وركب والي البر بطلبه وأجناده مبين متجملين»[٨٦].
- وفي سنة ٧٠٤هـ تلقاه نائب السلطنة والقضاة والأمراء عند باب الفرج، ولم نفهم تماماً ما كان يقصد بكلمته المعتادة «على العادة» في هذا الموضع، ولابد هنا أن نذكر أن الدورة انقطعت في دمشق بين عامي ٨٠٣ هـ و٨٠٦ هـ[٨٧].

---

(٨٦) ابن الجزري، حوادث الزمان وانبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه، تحقيق: محمد عبد السلام التدمري، ج٢، ص١١٠، ج٣، ص٥٩٧، ٦٧١، ٨٦٤.
الجوشن والجوسن - بالسين المهملة -: الدرع، ج جواشن وجواسن.
الزردية: درع من الزرد يلبس تحت الثياب الظاهرة وفوقه خوذة. دهمان، محمد أحمد، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص٥٧-٨٦.

(٨٧) السلوك في معرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، ج٢، ق٢، ص٢١٤.
البرزالي، المقتفي، تحقيق: عبد السلام تدمري، ج٢، ص٢٧٥.



جمال محملة في قافلة الحج، لاحظ الهوادج التي على ظهور بعضها.

بين الموكبين:

كان غالبية الحجاج خلال هذه الفترة يقضون جل وقتهم بالتحضير للسفر بشراء ما يحتاجون إليه وزيارة الأماكن المقدسة في ربوع دمشق ومنهم من يبيع ما أحضره معه من بلاده يستعين به على نفقات السفر. لكن ابن طوق يضيف تقليداً لم نسمع عنه سوى لديه وهو الخروج بالشتر مع أمير الحج إلى تحت القلعة قرب جامع يلبغا، وسنشاهد ذلك فيما بعد، ويكون عادة قبل دورة المحمل والانطلاق بيوم[88].

---

(٨٨) ابن طوق، التعليق. تحقيق: جعفر المهاجر. ج٢. ص١٠٤٥، ج٣، ص١٣٥٥.
جامع يلبغا: من العصر المملوكي. كان يوجد في شمالي ساحة المرجة الحالية بناه نائب الشام يلبغا اليحياوي سنة ٧٥٧هـ. هدم في منتصف سبعينيات القرن الماضي. أقيم في مكانه مجمع تجاري كبير. ابن عبد الهادي. يوسف، ثمار المقاصد في ذكر المساجد. تحقيق: محمد طلس. ص٢٥٨.

موكب السفر:

تاريخ الخروج:

في العشر الأول من شهر شوال عموماً، ونلاحظ هنا خلال السنوات ٧٢٥-٧٣٨هـ أن خروجه كان منتظماً بين ٨-١٠ شوال (راجع الجدول المرافق).

المشاركون:

إن أول وصف أورده ابن الجزري هو لسنة ٧٣٥هـ واستمر حتى انتهاء الحوليات سنة ٧٣٨هـ، أهم ما نلاحظه كفارق عن الدورة هو غياب ذكر النائب في حين استمرت مشاركة الأمراء والحجاب إضافة للشخصيات ذات المراتب والوظائف الدينية، وكانوا يسيرون أمام المحمل والسبيل، أما العسكر فيسيرون خلفه ولم نجد عنهم سوى ذكر للقلعية الملبسين، فيما كان الدمشقيون يستغلون الفرصة لتوديع المحمل وأحبائهم من الحجاج[٨٩].

مسار الموكب:

حقيقة لا معلومات متوفرة حول المسار، لكننا نعرف انطلاقه من القلعة والجهة التي يقصدها (الحجاز)، إذاً فتوقع المسار موثوق من القلعة إلى باب الجابية، قصر حجاج[٩٠]، باب

---

(٨٩) ابن الجزري، حوادث الزمان وانبائه ووفيات الأكابر والأعيان من ابنائه، تحقيق: محمد عبد السلام التدمري، ج٢، ص١١٠، ج٣، ص٧٦٩، ٨٣١، ٨٧٣.

(٩٠) حي يقع خارج باب الجابية ينسب لقصر بناه الحجاج بن عبد الملك بدأ تطوره منذ العصر الأموي ليصبح فيما بعد بدءاً من العصر الفاطمي والسلجوقي من أهم أحياء المدينة. الريحاوي، عبد القادر، روائع التراث في دمشق، ص٨٢.

مصلى، ميدان الحصا، القبيبات[٩١] ثم إلى الكسوة[٩٢] حيث عادة ما يلحق بالركب الحجاج المتأخرون عن الوصول[٩٣].

الركب:

كان السير نحو الحجاز وفق محطات ومنازل محددة، في كل منزلة يقام مخيم فيه السوق، حيث يشتري الناس حوائجهم كون التجار هم من المرافقين الأساسيين للركب سعياً وراء الربح، لذلك دوما ما تعد الأسعار جزءاً أساسياً في وصف الركب عند ابن الجزري، وبين الفينة والأخرى يذكرنا «إن التجار كسبوا في جميع بضائعهم»، وفي سنة ٧٢٦هـ قام أمير الحج بإكرام إحدى القبائل البدوية - بني سالم - وأعطاهم الخلع والهدايا، فقاموا بتأمين احتياجات الركب من الأغنام والسمن والعسل والتمر، وفي نفس العام وصلت قافلة من اليمن ومعها الفلفل والبهار فكانت فعلاً حجة مميزة[٩٤].

تقاليد المحمل في الحجاز:

لا توجد معلومات كثيرة حول هذا الموضوع، لكن بعض التفاصيل في بعض الأحداث المرتبطة بالحج تعطينا إشارات نادرة، فبالإضافة

---

(٩١) إنها كانت الضواحي الأساسية في الجنوب وهي نويات معمارية تكونت حول معالم أساسية فنسبت إليها وهي: مصلى العيدين، ميدان الحصى، إضافة لقرية القبيبات والتي كونت كلها فيما بعد حي الميدان في العصر العثماني، احد أهم الأحياء الجنوبية لمدينة دمشق. للمزيد. حي الميدان في العصر العثماني، تأليف: بريجيت مارينو، ترجمة: ماهر الشريف، ط١، دمشق، سوريا، دار المدى، ٢٠٠٠.

(٩٢) الكسوة بلدة من بلدات ريف دمشق تقع جنوب العاصمة دمشق وتبعد عنها ١٨كم.

(٩٣) ابن الجزري، حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه، تحقيق: محمد عبد السلام التدمري، ج٢، ص١١٠، ج٢، ص٧٦٩، ٨٣١، ٨٧٣.

(٩٤) ابن الجزري، حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه، تحقيق: محمد عبد السلام التدمري، ج٢، ص١١٠، ج٢، ص٥٧-١٠٣.

إلى ما ذكرناه أعلاه حول السناجق، يذكر المقريزي في «السلوك» سنة ٧٢١هـ أن المحامل الثلاث (المصري، العراقي، اليمني) التي كانت في مكة قد اصطفت وراء بعضها، ولا بد من التنويه هنا أن المحمل العراقي هو نفسه المحمل الباذخ الوارد ذكره سابقاً[٩٥].

كما يذكر ابن الجزري، في حوادث الزمان سنة ٧٣١هـ أن المحمل العراقي وقف عن يسار المحمل المصري وفي كلا الخبرين كان المحمل الشامي غائباً، لكن السؤال ما هو المحمل الواقف إلى يمين المحمل المصري؟ وحيث أن المؤلف أكد خروجه من دمشق نعتقد أن المكان الذي على يمين المحمل المصري كان للمحمل الشامي. ومن العادة كذلك أن يجتمع أمير مكة مع الأمراء ويتقبل خلعة السلطان[٩٦]. كما كان يقوم بتقبيل قدم جمل المحمل السلطاني[٩٧]، ويعطينا مرسوم تعيين أمير لمكة يتحدث عن مهام الأمير خلال الحج تفاصيل مسير المحمل خلال الشعائر:

«وليتلق المحمل الشريف في كل عام، بالاحتفال والإكرام، والطاعة التي يبلغ بها المرام، وليقف مع أمراء الحاج مقيماً لحرمتهم بجميل الاحترام». «وليلازم خدمة المحمل الشريف على ما يناسب شرفه، حتى يقف بعرفة، ثم يدفع إلى المزدلفة، إلى أن يقضي الحج ويرحل من مكة المشرفة»[٩٨].

---

(٩٥) السلوك في معرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، ج٢، ق٣، ص١١٢١.
ذكر الأنصاري أن هذه الحادثة وقعت سنة ٨٢٠ هـ. وهذا ما يجعلنا ننوه بالأخطاء الواقعة خلال تجميعه الأخبار.
الأنصاري الجزيري، درر الفوائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، ص٢٩٨.

(٩٦) ابن الجزري، حوادث الزمان وانبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه، تحقيق: محمد عبد السلام التدمري، ج٢، ص٤٥٤.

(٩٧) نسخة أخرى من ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق: حسن حبشي، ج١، ص٢١٨.

(٩٨) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٢، ص٢٣٧-٢٣٨.

في العصر المملوكي لم تكن السلطة ترسل قافلة مؤن بشكل سنوي - كما جرت العادة في العصر العثماني (الجردة) - إلى محطة من المحطات لتغطي النقص الحاصل بها، لكن إذا وصلت أخبار شح المؤن فقد تقوم بإرسال المساعدات العاجلة كما حدث للركب المصري في سنة ٧٠٤هـ «فجهز للحاج من الأمراء ولغيرهم من الإقامات والجمال بالأحمال واستُقبلوا بالشعير إلى القريب من ينبع»[٩٩]، كما وجدنا خبراً آخر يذكر أن الأهالي كانوا يلاقون الحجاج قريب العقبة سنة ٨٤٩هـ «وصحبتهم أنواع المأكولات والعلف على العادة»[١٠٠]. وحينما حج السلطان الناصر محمد سنة ٧٣٢هـ جاءت الأوامر بتلقيه على الطريق بثلاثة وأربعين حملاً «منها ثلاثة عشرة حمل فاكهة كمثرى وسفرجل صيفي وتفاح وغير ذلك من أصناف الفواكه والأعناب ألوانٍ وعشرة أحمال مخللات والباقي حلاوة وطعم وغير ذلك»، طبعاً لا ننسى الثلج ولا تعليق سوى تأمل يا رعاك الله[١٠١].

المبشر بالحج:

هي عادة قديمة تقضي بإرسال شخص يحمل البشرى السعيدة، ومنه جاء الاسم بعد نصر في معركة، القبض على مطلوب للسلطان، شفاء السلطان من مرض، وعودة الحجاج سالمين، ويحمل معه كتب الحجاج كذلك.

---

(٩٩) العيني، بدر الدين محمود، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق: محمد أحمد امين، ج٤، ص٢٦٦-٢٦٧.

(١٠٠) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق: شرف الدين أحمد، ج٩، ص٢٣١.

(١٠١) ابن الجزري، حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه، تحقيق: محمد عبد السلام التدمري، ج٢، ص٥٣٥.

كان وصوله مؤرخاً عند ابن حجر العسقلاني في «إنباء الغمر»، لكن في الجانب المصري حيث كان يخرج بعد وقفة عرفة ليصل بالعشرية الأخيرة من ذي الحجة. كما عرفته دمشق، حيث يورد ابن طولون خبراً عن فرض أموال على بعض الأحياء لإعطائها للمبشر لحج سنة ٩٢٦هـ في السنوات الأولى من الاحتلال العثماني، وبالتالي يعود تقليده للمماليك[١٠٢].

كتب الحجاج:

من العوائد التي ظلت مستمرة كُتُب الحجاج لذويهم وأحبائهم والتي كانت تصل لدمشق من تبوك خلال سبعة إلى عشرة أيام، حيث تغادرها بنهايات العشر الأول أو بداية العشر الثاني لتصل في النهايات من محرم يتلوها وصول الحجاج بعد عدة أيام، ولننظر التواريخ التالية التي نأخذها من كتاب ابن الجزري المدرجة ضمن الجدول التالي:

الوصول إلى دمشق	المغادرة من تبوك	السنة
١٩ محرم	١٢ محرم	٧٢٩هـ
١٧ محرم	٨ محرم	٧٣٤هـ
١٦ محرم	٩ محرم	٧٣٦هـ

(١٠٢) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر بأبناء العمر. تحقيق: شرف الدين أحمد. ج٩، ص٩٠-٢٢٦.
ابن طولون، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، وضع الحواشي: خليل المنصور، ص٣٩٠.

كما لم يكن هناك شخص محدد يقوم بهذه المهمة، في سنة ٧٢٨هـ كان استادار أمير الركب، وفي سنة ٧٢٩هـ كان ابن أمير الركب ودليل الركب(١٠٣).

موكب العودة:

من الملاحظ هنا أن مرافقة الحجاج للمحمل في عودتهم لم تكن تشكل قاعدة يُلتزم بها، وخاصة أن الحجاج الذين كانوا يغادرون من منى والمدينة كانوا يصلون أبكر من بقية الركب، حيث كانوا يرافقون الركب الكركي. ولم يصف ابن الجزري سوى ثلاثة مواكب لسنوات ٧٣٠-٧٣٤-٧٣٧هـ بحيث احتوى الوصف التفاصيل المهمة حول المشاركين والاستعراض المرافق. كما وصلنا وصف من ذلك العهد وبتفاصيل دقيقة من قبل رحالة أوروبي يدعى برتراندون دي لا بروكير زار دمشق في الفترة بين ١٤٣٢-١٤٣٣م (راجع الملحق رقم ٣)(١٠٤).

الموعد:

كان الدخول عادة يتم بكرة النهار، لكن لا يخلو الأمر من التأخر كما في سنة ٧٥٨هـ حيث دخل أمير الركب بعد العشاء

---

(١٠٣) ابن الجزري. حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه. تحقيق: محمد عبد السلام التدمري. ج٢. ص٣١٧. ج٣. ص٦٦٢-٨٥٥-٩٢٥.

الاستادار: مكونة من كلمتين استذ: الآخذ. دار: الممسك. ثم أدغمت الذال مع الدال وتطلق على من يتولى قبض المال السلطاني وتمثيل أوامر السلطان. دهمان. محمد أحمد. معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي. ص١٥.

(١٠٤) ايبش. أحمد. دفاتر شامية عتيقة: مذكرات ومرويات ونوادر من تاريخ دمشق. ص٩٠.

وبين يديه المشاعل[١٠٥]، وغالباً ما كان الدخول في الأيام الخمس الأخيرة من شهر محرم، لكن في سنة ٧٣٤هـ تأخر دخوله حيث بقي منتظراً يومين خارج حدود المدينة حتى أخبروا النائب الذي كان متغيباً عن المدينة.

المشاركون:

لا بد من إضفاء الصبغة الدينية على الموكب بحضور جميع أصحاب الوظائف الدينية بالمدينة، كما أن النائب ومعاونيه من المماليك لا يفوتون الفرصة للقاء المحمل والسبيل، إذ لا بد من انتظاره حتى يرسم (يأمر) بدخوله كما جرى سنة ٧٣٤هـ حيث بقي الموكب يومين خارج المدينة بجسورة حتى أخبروا النائب الذي كان غائباً، وفي اليوم التالي كان الدخول بالكوسات والأعلام، لكن الدخول الأكثر جمالية كان سنة٧٣٧هـ مع «الصناجق المذهبة التي للمنابر والجوامع» بمشاركة «جماعة القلعة وهم ملبسين يلعبون بالنفط ويتطاعنون بالرماح»، وهذا ما يتطابق مع مجريات الوصف في نص الرحالة الأوربي لكنه يزيدنا بإعطاء ترتيب الفرق، ففي المقدمة الفرق الموسيقية «أربعة من حملة المزمار والطبول والكوسات الكثيرة وكلها تدق»، وحول جمل المحمل الفرق العسكرية من الجند والعسكر «وكان يحيط بالجمل نحو ثلاثين شخصاً يتنكب بعضهم الأقواس ويشهر آخرون السيوف ويحمل غيرهم البنادق ويطلقون النيران بين الفينة

---

(١٠٥) البرزالي، المقتفي، تحقيق: عبد السلام تدمري، ج٣، ص٢٥٦-٢٧٥، ج٢، ص٥٣٦، ج٣، ص١٢.
ابن قاضي شهبة، تاريخ ابن قاضي شهبة، تحقيق: عدنان درويش، مج٢، ج١، ص١١٥.

والأخرى»، وخلفه الخيالة والفرسان «يعلون إبلاً سريعة العدو وخيولهم الجموحة مجللة بالقماش المزركش تعلوها سروج مزخرفة»[١٠٦].

لابد من التنويه هنا لحادثة استثنائية جرت في عام ٩٠١هـ حيث دخل دمشق محملان:

المحمل المجدَّد الذي خرج للحج في نفس العام.

المحمل الذي أخذه العرب في العام الذي سبقه[١٠٧].

بالمناسبة فإن ثوب المحمل قد جُدد من قبل نائب الشام سنة ٨٠٦هـ وصرف عليه ٣٥ ألف درهم من الفضة[١٠٨].

هكذا نلاحظ كيف أن كثيراً من تقاليد المحمل استمرت في العصر التالي بينما أخرى اختفت، لكن الجو الكرنفالي ذا الصبغة الدينية الروحية بقي مسيطراً على تقاليده. وقبل الدخول في العصر العثماني فإننا نفضل التحدث بداية عن مرحلة انتقالية تتناول وصفاً للمحمل في زمن العثمانيين أورده ابن طولون.

---

(١٠٦) ابن الجزري. حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من ابنائه. تحقيق: محمد عبد السلام التدمري. ج٢. ص٣١٧. ج٣. ص٥٨٨-٦٦٢-٩٢٦.
ايبش. أحمد. دفاتر شامية عتيقة: مذكرات ومرويات ونوادر من تاريخ دمشق. ص٩٠.
جسورة من القرى التي كانت في الناحية الجنوبية من دمشق بالقرب من مسجد القدم.

(١٠٧) ابن طوق. التعليق. تحقيق: جعفر المهاجر. ج٣. ص١٣٧٤.

(١٠٨) ابن شاهين الظاهري. نيل الأمل في ذيل الدول. تحقيق: عمر عبد السلام تدمري. ق٣. ج١. ص١٠١.

المحمل المملوكي العثماني:

أطلقنا عليه هذا الاسم كون العثمانيين لم يتيسر لهم الوقت حتى يغيروا الكثير من الأمور، بل إن حاكم الشام نفسه كان من بقايا المماليك، فالمحمل هو نفسه مع اختلاف اسم السلطان والنص لابن طولون سنة ٩٢٤هـ:

«وفي صبيحة هذه الليلة داروا بالمحمل دورة دمشق، ومعه خيول ملبسة، وهجن مكورة، وجمال مرحلة، ورجالة مدرعة في مهيع عظيم، وخرج من دار السعادة، وعاد إليها ومعه السنجق، وهما على هيئتهما في أيام الجراكسة، غير أنه مكتوب عليهما اسم سلطان الروم الملك المظفر سليم خان بن عثمان، وجلس نائب الشام جان بردي الغزالي في الشباك الكبير، من شبابيك حرم جامع يلبغا، المطل على تحت القلعة، وجيء بجمل المحمل إلى قدامه فبرك على ركبتيه، ثم نهض كأنه يقبل الأرض له، ثم ذهب إلى الدورة المذكورة»[١٠٩]. الخبر مع كل تفاصيله يقدم الحقائق التالية وهي متعلقة بالعصر المملوكي:

- الطابع الاحتفالي البسيط مقارنة بالمواكب في المرحلة التالية.
- المحمل يخرج وحيداً من دار السعادة[١١٠] ثم يعود إليها مع السنجق. ولسوء الحظ فإننا لا نعلم تماماً كيف وأين يلتقيان؟

---

(١٠٩) ابن طولون. مفاكهة الخلان في حوادث الزمان. وضع الحواشي: خليل المنصور. ص٣٨٥.
الألفاظ الواردة بالنص: الهجن المكورة والجمال المرحلة تعني كلتاهما الرحل والأمتعة التي على ظهورها أما لفظة «مهيع» فلا بد أنها خطأ في النسخ والأصح موكب.

(١١٠) دار السعادة: كانت توجد في سوق الحميدية مقابل باب السر الجنوبي للقلعة. تناقل ملكيتها عدة أفراد من البيت الأيوبي حتى غدت مركز نواب السلطنة في العهد المملوكي. راجع ابن شداد. الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة. تحقيق: سامي دهان. ص٨٨.

وإذا كنا نعلم أن السنجق كما ذكرنا سابقاً كان يُنقل في موكب متواضع من القلعة إلى الجامع الأموي، فبعد ذلك لا نعرف ماذا يحدث، ومع هذه المعلومات المعاصرة لذلك الحدث، ولنفس المؤرخ، نستنتج أن الموكب كان – ولا بد - يمر على موضع يحفظ به السنجق قبل أن يكمل الدورة ويعود إلى دار السعادة.

- بقيت منطقة ما تحت القلعة المكان المفضل للوالي حيث يقوم بحركة تدل على قدسية المحمل وجمله قبل التحرك للدورة وهي من أولى الإشارات عن هذا الأمر.
- إن مسار الدورة هو من أكثر الأمور استقراراً والسبب في ذلك كما نرى يعود لارتباط الدورة بعنصر أشبه ما يكون بالثابت وهو السور، فيما كانت مجمل التغييرات عبر العصور يسببها نمو الضواحي خارج المدينة.

تقاليد المحمل في العصر العثماني:

حينما استولى العثمانيون على المشرق وأسقطوا دولة المماليك في بدايات القرن السادس عشر، استمروا بإحياء تقاليد المحمل وفق ما كان سائداً في عصر سابقيهم، واقتصرت التغييرات على الشكليات كما رأينا سابقاً في موضوع السنجق، حيث تم تغيير السنجق فقط فيما استمرت تقاليده، كما نلاحظ أن طقوسه قد بدأت تأخذ طابعاً عثمانياً خاصة بعد استقرار الحكم العثماني وازدياد أهمية المحمل الدمشقي مقارنة بالعصر المملوكي. لا بد هنا أن نذكر أن ثوب المحمل قد تغير خلال هذا العصر عدة مرات منها سنة ١١٤٤هـ وسنة ١١٧٤هـ(١١١).

---

(١١١) ابن كنان الصالحي، يوميات شامية، تحقيق: أكرم حسن العلبي، ص٤٢٤.
ابن القاري، الوزراء الذين حكموا دمشق، ضمن كتاب ولاة دمشق في العصر العثماني، صلاح الدين المنجد، ص٨٣.

الدورة:

موعد الخروج:

جرت العادة قبل خروج الركب من دمشق بنحو ثلاثة أشهر أن يخرج باشا الشام مع جنده بجولة تفتيشية لمدة شهر وذلك في أوائل رجب أو شعبان ثم يعود لدمشق أوائل شوال، وفي حالات أخرى قد يكون الموعد أبكر في أواخر جمادى الثانية وأوائل رجب أو متأخراً في أوائل رمضان.

النطاق الجغرافي:

نلاحظ عموماً أن المناطق المقصودة اتجهت إلى حيث العصيان أولاً، ثم أُخذت بعين الاعتبار العوامل الأخرى من قابلية سكان تلك الأماكن للثورة، لذلك كان لا بد من إظهار القوة لفرض الهدوء فيها وأغلبها جنوب دمشق(١١٢).

الهدف:

بغرض إظهار قوة الدولة وقدرتها على قمع أي عصيانات أو حركات مسلحة في المناطق التي ستمر بها فيما بعد قافلة الركب. بالإضافة لجمع مال الدولة من هذه المناطق، والذي سيستخدم في تجهيز القافلة(١١٣).

---

(١١٢) البديري، أحمد، حوادث دمشق اليومية، أحمد عزت عبد الكريم، المقدمة، ص٦٦.

(١١٣) البديري، أحمد، حوادث دمشق اليومية، أحمد عزت عبد الكريم، المقدمة، ص٦٦.



الفرسان المرافقون للمحمل على الهجن، ونلاحظ علم الدولة العثمانية على يمين الصورة.

إمارة الحج والوظائف الأخرى في الركب:

نظراً للدور الأساسي لقافلة لحج والمحمل في تأكيد قوة الدولة وسلطتها في أعين رعاياها إضافة للأهمية الدينية كون الحج أحد أركان الدين الخمسة الأساسية، والسلطة الروحية للسلطان الذي اتخذ لقب الخلافة مدعياً بتنازل الخليفة العباسي عنها له، فقد أعطى هذا أهمية استثنائية لمنصب أمير الحج، لذلك كانت السلطة العثمانية تبحث أولاً عمن يحقق متطلبات هذا المنصب، كحاكم نابلس أو عجلون، وأحياناً كان يتم اختيار أحد كبار العسكريين في دمشق أو أحد زعماء العشائر العربية فيها كبني فروخ، حيث استمر ذلك حتى عام ١٦٧٠م، عندما استلم باشا الشام إمرة الحج لمدة قرنين من الزمن جامعاً إياه مع باشوية الشام. ومن الشخصيات الأخرى التي ظهرت في قافلة الحج كانت شخصية أمير الركب والتي ظهرت في القرن السابع عشر، ويعتقد أنها تخص قائد الجند المكلف بحراسة الحجيج[١١٤] إضافة لقاضي الركب.

---

(١١٤) المحاسني، تاريخ المحاسني، تحقيق: صلاح الدين المنجد، ص٩٠، ١٠٢، ١٣٥، ١٣٧.
البديري، أحمد، حوادث دمشق اليومية، أحمد عزت عبد الكريم، المقدمة، ص٦٦-٦٩.



جمل المحمل مزيناً والحشود حوله.

لا بد أن نشير إلى أن أمير الركب تحول اسمه لمحافظ ركب الحج الشريف[115]، وذلك قبل توقف إرسال المحمل، أي في نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين.

الصرة:

الصرة هي المال الخارج من دار الخلافة لإقامة شعائر الحرمين الشريفين، من شموع وزيت وقناديل ولوازم الإيقاد والفرش وجراية المستحقين (أي توزيع الأموال) من أهلها وعوائد جميع أهل الأراضي الحجازية عند مرور الركب[116] خاصة أمراء آل البيت إضافة لأمراء القبائل البدوية على طريق الحج، وغالباً ما أدى منع الولاة لوصول الأموال إلى تلك القبائل إلى هجومها على قافلة الحج والتسبب بكوارث هائلة ضجت بها مصادر تلك الفترة[117]. وكان

---

(١١٥) العظمة، عبد العزيز، مرآة الشام، تحقيق: نجدة فتحي صفوة، ص١١٥.
(١١٦) السنوسي، محمد، الرحلة الحجازية، تحقيق: علي الشنوفي، ص١٢٧-١٢٩.
(١١٧) العبد، آغا حسن، حوادث بلاد الشام، يوسف جميل نعيسة، هامش رقم ٦، ص١٢٩-١٣٠.

الذي يحمل الصرة يدعى باسم «الصرة أميني» (أي أمين الصرة)، وكان أمين الصرة يغادر العاصمة اسطنبول في أحد أيام الأسبوع الأخير من رجب ليصل إلى دمشق في منتصف أو نهاية الأسبوع الثالث من رمضان[١١٨].

الاحتفالات:

التصق المحمل بذاكرة المجتمع الدمشقي بطقوسه واحتفالاته التي تجذرت واستمرت حتى بدايات القرن المنصرم، حيث كانت أشغال المدينة تتعطل عموماً عدا باعة المأكولات.

اشتملت تلك الاحتفالات الكرنفالية ذات المسحة الدينية على أيام عدة سمّيت على اسم ما ارتبط بها من أمور وأشياء تُعدّ للإرسال للمدينة ومكة إضافة للمحمل والسنجق.

المواكب:

كانت الاحتفالات تبدأ باصطفاف الفرق العسكرية أمام المسجد الأموي حيث تؤدي التحية لوالي المدينة وقائدها العسكري وبعض كبار الموظفين[١١٩] ثم تتتالى المواكب في الأيام التالية:

- موكب خروج الزيت والشموع.
- موكب السنجق.
- موكب المحمل والقافلة نفسها.

---

(١١٨) البديري، أحمد، حوادث دمشق اليومية، أحمد عزت عبد الكريم، المقدمة، ص٦٧.

(١١٩) العلاف، أحمد، دمشق في مطلع القرن العشرين، ص٥٦.

موكب خروج الزيت والشموع:

نلاحظ أن عادة إرسال الشموع هي أقدم من هذه الطقوس، فناصر خسرو عند زيارته مسجد قبة الصخرة يذكر أن الشمع كان مرسلاً من سلطان مصر(١٢٠).

في حين أن ارتباط هذا التقليد مع المحمل نجده في الخبر السابق ذكره عند المقريزي حول كسوة الرسول وإرسال الشمع والبخور والزيت والطيب من قبل الظاهر بيبرس سنة ٦٦٢هـ، والتي كما يبدو اختصت بها دمشق فيما بعد بالعصر العثماني. والسؤال هو: متى كانت أول مرة استحدث فيها هذا الموكب؟ حيث نلاحظ أن ابن كنان لم يأتِ على ذكرها وهذا ما يدفعنا للاعتقاد أن بداياتها كانت في القَرن التاسع عشر.

تاريخ الخروج:

إن كلاً من العلاف والصيادي يخصصان يوماً للشمع ويوماً للزيت (موكب الزيت هو في اليوم الثاني من العيد أي الثاني من شوال وموكب الشمع في اليوم التالي)، وهذا لا يتفق مع ما أوردته إيزابيل بورتون التي جعلت الموكبين في يوم واحد تحدده في السابع من شوال(١٢١).

---

(١٢٠) ناصر خسرو، سفر نامة، رحلة ناصر خسرو، تحقيق: يحيى خشاب، ص٦٧.

(١٢١) الصيادي، محمد بن حسين عربي كاتبي، الروضة البهية في فضائل دمشق المحمية، تحقيق: صلاح الدين خليل، ص١٢٢.

العلاف، أحمد حلمي، دمشق في مطلع القرن العشرين، تحقيق: علي جميل نعيسة، ص٥٦.

نعيسة، يوسف، مجتمع مدينة دمشق، ج٢، ص٦٦٦.

BURTON, Isabelle The inner life of Syria, Palstine and the holy land, pp 55

المسار والاستعراض:

حسب وصفي العلاف والصيادي اللذين يكادان يتطابقان، يخرج الزيت من قرية كفر سوسة[١٢٢] - حسب بورتون اسم المعصرة هي معصرة السوق - في ضروف من جلود الغنم أو البقر موضوعة في صناديق خشبية على جمال مزركشة، ويتقدمه موكب من أهالي القرية يلعبون بالسيف أو العصا ويرددون الأوراد إضافة للطبول والمدافع[١٢٣].

يبدأ دخولهم في السابع من شوال من باب سريجة[١٢٤] تجاه قبر الصحابي زيد بن ثابت، ثم يمرون من سوق باب الجابية إلى سوق الدرويشية باتجاه المشيرية، حتى يصلوا أخيراً إلى مركز الكيلار الخاص بأدوات الحج[١٢٥]. في حين يزيد وصف نعيسة عما أوردته بورتون، فنرى أن أمام جمال الموكب التي تحمل الضروف بيرق (راية أو علم) أخضر بشراشيب حمراء مزينة

---

(١٢٢) كفر سوسة: كانت قرية صغيرة في جنوب دمشق قبل أن تتوسع المدينة وتصبح جزءاً من أحيائها. الشهابي، قتيبة، معجم دمشق التاريخي، ج٢، ص١٤٤.

(١٢٣) نعيسة، يوسف، مجتمع مدينة دمشق، ج٢، ص٦٦٦.

(١٢٤) باب سريجة: حي في دمشق يقع خارج باب الجابية، أي في الجهة الغربية من المدينة بين الحيين الآخرين الذين يقعان بنفس القطاع من المدينة، حي القنوات نسبة للقنوات الرومانية، وحي قصر حجاج، أقدم الإشارات لوجوده تعود لأواخر العهد المملوكي. الشهابي، قتيبة، أبواب دمشق، ص٣١٥.

(١٢٥) الصيادي، محمد بن حسين عربي كاتبي، الروضة البهية في فضائل دمشق المحمية، تحقيق: صلاح الدين خليل، ص١٣٦.

العلاف، أحمد حلمي، دمشق في مطلع القرن العشرين، تحقيق: علي جميل نعيسة، ص٥٦.

زيد بن ثابت الأنصاري الخزرجي المقرئ الفرضي (رض)، كان عمره لما قدم النبي (ص) المدينة، إحدى عشرة سنة، وفيها قتل أبوه حينما كان صغيراً، واستصغره الرسول يوم بدر، فرده، وشهد أحداً، وقيل لم يشهدها، وإنما شهد الخندق أو مشاهده، وكان ينقل التراب مع المسلمين، اختلف في سنة وفاته، والأرجح أنه توفي عن ست وخمسين سنة في المدينة.

بعبارات دينية وفرقة موسيقية من أربعين شخصاً مع آلات نفخية وطبول وصنوج[١٢٦].

أما الشموع فكانت تصنع في دار أحد الذوات تبركاً - تذكر إيزابيل بورتون أن مكان تصنيعها كان زقاق المبلط - ثم يأتون به على الأعناق بالشال الكشميري تتقدمهم كذلك الفرقة الموسيقية السلطانية وخلفهم المؤذنون برئاسة رئيس مؤذني الجامع الأموي وخلفه سبعة رجال يحملون مباخر كلها من فضة مموهة بالذهب إلا واحدة، لذلك كانت رائحة البخور تعبق بالجو منبعثة من تلك المباخر المحيطة به، ومع كل ذلك يسير جمع غفير من الناس والأشراف.

كانت الشموع تصنع بمقاسات مختلفة، وقبل أن توضع في الشال كانت تأتي محمولة على أيدي رجال أو محضونة من قبلهم، وفي بعض الحالات كانت تأتي بشباك خاصة، كل شبكة منها يحملها رجلان مع مباخر إلى أن تصل إلى الكيلار فتوضع بأكياس خاصة مع الزيت[١٢٧].

يعطينا العلاف معلومات إضافية بالغة الأهمية وينفرد بها، كوزن الشمع (٣ قناطير)، ويضيف للزيت والشمع ماء الورد

---

(١٢٦) نعيسة. يوسف. مجتمع مدينة دمشق. ج٢. ص٦٦٦.

(١٢٧) أحمد حلمي. دمشق في مطلع القرن العشرين. تحقيق: علي جميل نعيسة. ص٥٦.

الصيادي. محمد بن حسين عربي كاتبي. الروضة البهية في فضائل دمشق المحمية. تحقيق: صلاح الدين خليل. ص١٢٥.

BURTON, Isabelle The inner life of Syria, Palstine and the holy land, pp 55

ايبش. احمد. دفاتر شامية عتيقة. ص١٧٦.

أما زقاق المبلط فهو أحد الأزقة التي تواجدت في محلة سيدي عامود والتي احترقت أثناء القصف الهمجي الفرنسي سنة ١٩٢٥. وتحولت إلى حي الحريقة الحالي.

الشهابي. قتيبة. معجم دمشق التاريخي. ج٢. ص١٦٢.

من المزة بوزن قنطار والملبس نحو ١٠ قناطير[١٢٨]. ومن الوثائق النادرة وصف رحلة لرحالة إيراني حج مع الركب الشامي، وهي رحلة الحاج علي خان اعتماد السلطنة، النسخة الأصلية للرحلة يُحتفظ بها في مكتبة الروضة الرضوية في هراة بايران، وهي باللغة الفارسية، وقد دوّنها نجل المؤلف محمد حسن خان اعتماد السلطنة في ٢١١ صفحة بخط النستعليق عام ١٣٢٦هـ/١٨٣٦م وحيث أنه قد ختم رحلته في جمادى الأولى عام ١٢٦٣هـ/ نيسان ١٨٤٦م لا بد أن يكون حجه موافقاً للعام الذي سبقه ١٢٦٢هـ/١٨٤٥م، وما أورده من معلومات عن هذا الموضوع بالغ القيمة، حيث يذكر أنه يؤتى بثماني شمعات من مدينة تبريز داخل صندوق يُشبه التابوت، توضع كلّ شمعتين منها على بعير قويّ من اسطنبول بمعيّة أمير الحاج. أربع من تلك الشموع نذر للمدينة المنوّرة، والأخرى نذر لمكّة، ويوضع ذلك خارج المدينة. وهناك أيضاً زيت الزيتون المحضر محلياً والمُعبّأ داخل القناني، ثمّ تُربط القناني بصندوق، فالزيوت هي نذر ملك الروم، ويجب إرسالها دوماً مع الحجيج حيث توزع مناصفة لإضاءة المدينة ومكّة.

كما أنّ على جميع وجهاء المدينة أن ينووا ويوقدوا المشاعل في وضح النهار، ويحملوا الشموع بأيديهم، وبينما تردّد مجموعة منهم، وهم العلماء والفضلاء وجمع كبير من الناس الدعاء، وأخرى تُطبّل وتزمّر، يدخل الجميع بذاك النذر من الشمع والزيت مقر الباشا والي الشام (نظن المقصود هنا الكيلار وليس المشيرية). نلاحظ من الوصف أن الرحالة يحدد عدد الشمعات، لكنها ليست من صنع دمشق، وينفرد بوصفه

---

(١٢٨) أحمد حلمي، دمشق في مطلع القرن العشرين، تحقيق: علي جميل نعيسة، ص٥٦.
حسب هنتس: رطل دمشق=٦٠٠ درهم=١,٨٥ كغ، ١٠٠ رطل=قنطار =١٨٥ كغ.
هنتس، فالتر، المكاييل والأوزان الإسلامية، ص٣، ٤، ١٣.

لتقاليد إشعال الشمع بالنهار كما يتفق مع ما أوردته بورتون حول كون الزيت نذراً من السلطان العثماني[١٢٩].

الكيلار:

هو المستودع المخصص لأدوات الحج المختلفة (المحمل، السنجق، الشمع والزيت) يحدد قتيبة مكانه في حي البحصة[١٣٠]، وبورتون تذكر الكيلار على أنه خانة أو مركز الشرطة[١٣١] «Commissariat».

لذلك فإننا نتوقع وجوده في محيط ساحة المرجة، المركز الرسمي والإداري لدمشق، فضلاً عن قربه من جامع السنجقدار، إضافة للخبر السابق عن المحمل المملوكي والذي يشير لبداية انطلاق موكب الدورة من مكان يقع بالقرب من جامع يلبغا الذي كان في الجهة الشمالية من الساحة[١٣٢].

---

(١٢٩) عسكر. علي قاضي. رحلة الحاج علي خان اعتماد السلطنة من موقع لبيك الحج. http://www.labbaik.ir/ ولمعرفة الرابط راجع قائمة المصادر.

(١٣٠) الشهابي، قتيبة، دمشق تاريخ وصور، ص١١٦.

(١٣١) BURTON .Isabelle The inner life of Syria, Palestine and the holy land, p 56

(١٣٢) ساحة المرجة: كانت جزيرة تعرف سابقاً بما بين النهرين وتعتبر إحدى منتزهات دمشق. ومع انتقال المركز الإداري والسياسي إلى غرب المدينة في العهد العثماني ازدادت أهميتها خاصة في القرن التاسع عشر. حيث حظيت الساحة بعدة مبانٍ من أهمها السرايا المدنية، العدلية، المستوصف والبلدية وتشتهر بالنصب التذكاري للاتصالات والتلغراف. بعد تنفيذ الأحكام بشهداء السادس من أيار فيها عرفت بساحة الشهداء واقترنت بتلك الأهزوجة الدمشقية «زينوا المرجة والمرجة لينا». للمزيد: الشهابي، قتيبة، دمشق تاريخ وصور، ص٣١-٤٧.

جامع السنجقدار: يوجد في المحلة المعروفة به. انشاء الأمير المملوكي ارغون شاه المتوفى سنة ٧٥٠هـ. وعرف به كذلك مكان مسجد قديم أصغر رمم في العهد العثماني سنة ١٠٠٨هـ. عند تنظيم المنطقة ازيحت واجهته الشرقية سنة ١٩١٦م. ارتبط بالسنجق في العهد العثماني كما نرى. ابن عبد الهادي، يوسف. ثمار المقاصد في ذكر المساجد. تحقيق: محمد أسعد طلس، الذيل، ص٢٢٧.



موكب محمل الحج الدمشقي في طريق الميدان متوجهاً نحو الأراضي المقدسة أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين.

موكب الدورة:

من خلال المصادر التي توفرت لدينا نلاحظ أنه في النصف الثاني من القرن الثامن عشر - على الأرجح - تم ما يشبه إلغاء موكب الدورة المعتاد، حيث كان المحمل والسنجق يخرجان سويّة في موكب واحد، والاكتفاء بموكب للسنجق وحده يسبق خروج القافلة، يليه خروجهما سوية، ما أثرى وأعطى أبهة أعظم لتقاليد خروج المحمل وفي الوقت نفسه لغطاً في المفهوم. ولم نجد ما يساعدنا على تحديد زمن وكيفية الانتقال سوى إشارة عابرة عند علي خان يذكر فيها أن المحمل والسنجق يتم تزيينهما في القلعة في الثالث عشر من شهر شوال ثم الخروج بهما، وأغلب الظن أنه يقصد الدورة المعهودة، أما اليوم الذي يليه فهو يوم السنجق، إذاً لا بد من أنه قد مرت فترة انتقالية تواجد فيها التقليدان معاً، وصولاً لفترة تم فيها الاستغناء عن دورة المحمل.

موعد الخروج:

في ٨ شوال من كل عام، ولا تتم الدورة في يوم الأحد وهذا ما اعترض عليه المحاسني سنة ١٠٨٥هـ(١٣٣).

المسار:

لم يتغير المسار كثيراً عن العصر السابق، فلا زال يدور حول الأسوار وفق المسير التالي:

---

(١٣٣) المحاسني، تاريخ المحاسني، تحقيق: صلاح الدين المنجد، ص١٠٢.

- السرايا العسكرية[١٣٤].
- السنانية[١٣٥].
- مرقص السودان[١٣٦].
- طريق الشاغور[١٣٧] إلى باب كيسان[١٣٨].
- باب شرقي.
- سيدي رسلان[١٣٩].
- برج الروس[١٤٠].
- السادات[١٤١].

---

(١٣٤) السرايا العسكرية: عرفت باسم المشيرية وكانت توجد خارج باب النصر، استمرت مركزاً إدارياً في عهد الاحتلال الفرنسي فعرفت باسم المندوبية، هدمت سنة ١٩٤٩، وتم بناء القصر العدلي الحالي مكانها. للمزيد راجع: الريحاوي، عبد القادر، روائع التراث في دمشق، ص١٣٠-١٤١.

(١٣٥) السنانية: قرب باب الجابية حيث بني الوالي العثماني سنان باشا سنة ٩٣٣هـ مجموعة معمارية مكونة من جامع، حمام، سوق، مقهى، مكتب (مدرسة). الشهابي، قتيبة، معجم دمشق التاريخي، ج١، ص١٣٢.

(١٣٦) مرقص السودان: حالياً شارع البدوي يقع إلى جنوب جامع السنانية بنحو ٢٥٠م على يسار المتجه إلى حي الميدان. ابن طولون. إعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، تحقيق: محمد أحمد دهمان، ص٢٩٧، الحاشية رقم (٢).

(١٣٧) الشاغور: أحد أهم الأحياء الدمشقية، يقع في جنوب المدينة عند الباب الصغير، توسع خارج الباب فصار هناك الجواني منه والبراني. الشهابي، قتيبة، معجم دمشق التاريخي، ج١، ص٢١٩.

(١٣٨) باب كيسان: أحد أهم أبواب دمشق يقع في الجهة الجنوبية من المدينة، تم تحويله زمن الانتداب الفرنسي إلى كنيسة بولص. الشهابي، قتيبة، أبواب دمشق، ص١٩٣-٢٠٧.

(١٣٩) مقبرة الشيخ أرسلان: يقصد بالمقبرة ضريح الولي وجوارها حيث دفن بمقبرة باب توما. الصيادي، محمد بن حسين عربي كاتبي، الروضة البهية في فضائل دمشق المحمية، تحقيق: صلاح الدين خليل، ص ٢٢٥-٢٣٧.

(١٤٠) برج الروس: موضع خارج باب توما بينه وبين القصاع ينسب فيما يروى لما أقامه تيمور من رؤوس الضحايا بعد احتلاله دمشق. الشهابي، قتيبة، معجم دمشق التاريخي، ج١، ص٣١.

(١٤١) السادات: مسجد السادات الزينبية يعرف كذلك بجامع الأقصاب، مسجد الرؤوس وجامع منجك، ويوجد حالياً بالطرف الشرقي لشارع الملك فيصل. ابن عبد الهادي، يوسف، ثمار المقاصد في ذكر المساجد، تحقيق: محمد أسعد طلس، الذيل، ص٢٢٢-٢٢٣.

- العمارة[142].
- الأبارين[143].
- السروجية[144].
- الحدرة[145].
- سيدي خليل[146].
- الإسطبل[147].
- السرايا.

حيث يدخل السنجق مع المحمل السلطاني إليها وتقدم الضيافة على عادة تنسب لنور الدين زنكي في أرض السرايا، ثم تطوى المحامل وتوضع كلها في صناديق مختومة حتى خروج الحج[148].

---

(١٤٢) العمارة: يقع حول باب الفرج وينسب لعمارة الأخنائي التي كانت خارج باب الفراديس. الشهابي، قتيبة، معجم دمشق التاريخي، ج٢، ص٨٨.

(١٤٣) الأبارين: من صانعي الإبر حيث كان يتواجد سوق خاص بصناعتها يعرف بالأبارين خارج باب الفرج. ولا يزال هذا الاسم يطلق على سوق قائمة خارج باب الفرج. ابن كنان الصالحي، المواكب الإسلامية، تحقيق: حكمت إسماعيل، ج٢، ص٣٤٧، الحاشية رقم (٩).

(١٤٤) السروجية: سوق كان يقع خارج غرب القلعة وبينهما قناة العقرباني، كان يعرف بسوق السرايجية والسراجين وهو مخصص للسروج والجلديات المتعلقة بها. الشهابي، قتيبة، معجم دمشق التاريخي، ج٢، ص٣٨.

(١٤٥) الحدرة: موقع غرب قلعة دمشق عند الزلابية التي هي السنجقدار اليوم وتعرف بحدرة ملك آص. الشهابي، قتيبة، معجم دمشق التاريخي، ج١، ص١٧٢.

(١٤٦) جامع يعرف بالناعورة حالياً إلى الجنوب من جامع السنجقدار. وقد ورد عن ابن طولون: «ضريح الشيخ خليل شمالي اصطبل السلطان» فالضريح حسب الشهابي هو جامع سيدي خليل وهو الأقرب للصواب. قتيبة، معجم دمشق التاريخي، ج٢، ص١٢٠.

(١٤٧) موضع كان غربي القلعة وهو على الأغلب في محيط ساحة المرجة.

(١٤٨) ابن كنان الصالحي، المواكب الإسلامية، تحقيق: حكمت إسماعيل، ج٢، ص ٣٤٥-٣٤٩.

ابن كنان الصالحي، يوميات شامية، تحقيق: أكرم حسن العلبي، ص ١٥٥-١٥٧.

ما ذكرناه أعلاه هو من وصف ابن كنان المرجع الأساس في كتابيه «يوميات شامية» و«المواكب الإسلامية».

ويكاد الوصف الثاني يكون مختصراً للوصف الأول لولا أنه أمدّنا بتفاصيل أكثر عن المسير، حيث أن ذكر سيدي خليل والإسطبل لم يرد سوى في الوصف الثاني، في حين يمتاز الأول بوصف الموكب بإسهاب أكبر ووصف المشاركين فيه، كما أنه يتحدث في يومياته الشامية عن أن الخروج يكون من دار العدل وهو يقصد غالباً السرايا. بينما يتركز وصف موندريل فعلاً على الدورة، حيث أن تاريخه (٩ شوال) يتطابق مع ما ذكره ابن كنان[١٤٩].

المشاركون والاستعراض:

لا تختلف فئات المشاركين كثيراً عما كان سائداً في الفترة المملوكية، لكن المشاركين والمظاهر الكرنفالية كانت أكثر تنوعاً وحضوراً بحيث أثرت تأثيراً عظيماً في الذاكرة الجمعية للمدينة وحفرت آثاراً لا تنسى في مختلف نواحي المجتمع.

يأتي في مقدم الحضور أصحاب الطبقة العسكرية من الجنود، من مختلف الطوائف والفرق[١٥٠] ورؤساؤهم، إضافة

---

(١٤٩) Wright. Thomas, early travels in Palestine., pp 489-490

(١٥٠) من أهم الفرق والطوائف التي تذكر في المصادر المتعلقة بالفترة العثمانية:

- الإنكشارية أو الينكرجية تعني الكلمة بالتركية العسكر الجديد. أوجدوا من قبل السلطان أورخان في بداية الدولة كقوة ضاربة ثم استفحل أمرهم وباتوا يتسلطون على الدولة بشكل سافر كالتدخل في تنصيب السلاطين. العبد، آغا حسن، حوادث بلاد الشام، يوسف جميل نعيسة، هامش رقم٥، ص٤٦-٤٧.
- السكمانية أو السقمانية: أصل الكلمة من الفارسية وتعني حارس الكلب، وكما يبدو فإنهم من الفرق غير النظامية. وبالتالي ليس لهم رواتب نظامية بل أجور يومية، وبعد سقوط القسطنطينية أصبحوا تحت تصرف الإنكشارية. العبد، آغا حسن، حوادث بلاد الشام، يوسف جميل نعيسة، هامش رقم٣، ص١٠٨. =

لأكابر الدولة وقاضي المحمل وآغا القلعة[١٥١] والينكرجية وجميعهم متعممون.

وأول ما كان يخرج هو التخوت المزينة[١٥٢] والجمال (الملبسة)، يرافقهم العكامة جماعات جماعات، وأخيراً أمير الحج الشخصية المحورية[١٥٣]، ومن ثم يسير الموكب في المسار المنوه عنه سابقاً.

موكب السفر:

سنقوم بدراسة موكب السنجق الذي أصبح مرتبطاً بهذا الحدث فيما بعد، مع اضمحلال دور الدورة وارتفاع أهمية موكب السفر باتجاه مكة والمدينة.

= - السباهية أو الأصفهانية: وهم فرقة من الفرسان الإقطاعية كانوا يأخذون الإقطاع على شكل راتب يعتاشون منه. ابن كنان الصالحي، المواكب الإسلامية، تحقيق: حكمت إسماعيل، هامش رقم٦، ص٣٤٥.

- اليرلية: مشتقة من كلمة تركية تعني المحل وهم الإنكشارية الدمشقية التي دخلها عدد كبير من السكان المحليين وكانت دائمة التصادم مع النوع الآخر من الإنكشارية القابي قولاري الغريبة عن دمشق. وأصل الكلمة تركي بمعنى عبيد الباب أي عبيد السلطان، وتختصر للقابي قول والقول. ويمنع المسلمون الأحرار من الدخول فيها. ويستقرون كحامية بالقلعة وزعيمهم يسمى الآغا ويعين من استانبول. العبد، آغا حسن، حوادث بلاد الشام، يوسف جميل نعيسة، هامش رقم٩، ص١٤-١٥، هامش رقم٦، ص١٣.

كما أن هناك طوائف أخرى عرفت بالمكان الذي جاءت منه:

- القرمانية: نسبة لقرمان وهي مدينة في تركمانستان.
- الرملية: نسبة لمدينة الروم أيلي وهو الجزء الأوروبي من السلطنة مقابل الأناضول الأسيوية.
- الأرناؤط: أي الألبان.
- البغادة: نسبة لبغداد.

ابن طولون، حوادث دمشق اليومية، تحقيق: أحمد ايبش، هامش رقم١، ص١٢٥.

(١٥١) الآغا لها معان كثيرة منها: السيد. الرئيس. مالك الأرض. وهنا القائد العسكري. لمعلومات أكثر: العبد. آغا حسن، حوادث بلاد الشام، يوسف جميل نعيسة، هامش رقم٤. ص١١-١٢.

(١٥٢) التخت تأتي بمعنى السرير أو المقعد وخزانة الثياب.

(١٥٣) ابن كنان الصالحي، المواكب الإسلامية، تحقيق: حكمت إسماعيل، هامش رقم٦، ص٣٤٥-٣٤٦.

موكب السنجق:

بداية وقبل الخوض في تفاصيل الموكب فإننا نفضل البدء بالحديث عن العلاقة بين السنجق المرتبط بهذه التقاليد، وسنجق أو راية الرسول (ص).

قدسية السنجق:

رأينا في خبر السابق كيف أن ابن طولون لا يضفي صفة القداسة على السنجق كما جرى في العصر العثماني التالي.

تعتقد بورتون بوجود رابط بين سنجق المحمل وراية النبي (ص)، وهي الراية السوداء المسماة «العقاب»، والتي جعلتها السيدة عائشة ستارة باب بيت الرسول (ص)، وحملها علي يوم فتح مكة، كما كانت في موقعة صفين، وحملها خالد معه خلال فتح الشام[١٥٤]، وحسب أحمد تيمور باشا فإن خبر هذه الراية قد اختفى ليظهر مع ادعاءات العثمانيين بامتلاكها[١٥٥]، وهناك قصة تحدثنا عن انتقال الراية (العقاب) عبر العصور مستقرة - للصدفة كما لقب الخلافة نفسها - في استانبول، فبعد انتقالها من أيدي الفاطميين إلى المماليك، استعادها السلطان الفاتح سليم الأول بعد استيلائه على مصر، وهنا توجد روايتان

---

(١٥٤) العبد، آغا حسن. حوادث بلاد الشام. يوسف جميل نعيسة. هامش رقم١. ص١٣١.
نعيسة. يوسف. مجتمع مدينة دمشق. ج٢. هامش رقم٢. ص٦٦٧.

(١٥٥) هنا يكذب الادعاءات العثمانية كونها لا تستند لأرضية تاريخية. كما يذكر قصة البيرق النبوي الذي ظهر خلال مقاومة الشعب المصري للحملة الفرنسية بقيادة نابليون واعتقاد العوام المصريين أن العلم العثماني الأخضر ذي الهلال والنجمة هو على نموذج العلم النبوي. عموما «القصة وما فيها» كما يقولون هي الحاجة لدافع لإثارة الحماسة عند الشعب. تيمور باشا. أحمد. الآثار النبوية. ص١٠١-١١٠.

لانتقالها، الأولى أن أحد أمراء المماليك قد أعطاه للسلطان، والأخرى هي أنها قدمت إلى السلطان من قبل شريف مكة، ونحن نعتقد أن الرواية الثانية هي الأقرب للصحة، كون أننا لا نرى تقليداً يرتبط بالسنجق الشريف في مؤلفات ذلك العصر، أو أنه كان محفوظاً للخاصة فقط.

حسب الموسوعة الإسلامية، بقي السنجق في دمشق يستخدم في احتفالات الحج حتى سنة ١٥٩٣م، حيث طلبه السلطان لاستخدامه مع الجيش الذي يقاتل ضد النمسا لرفع معنويات الجند، وفي سنة ١٥٥٩م تقرر الاحتفاظ به نهائياً في خزانة الآثار النبوية في قصر طوب قابي بالعاصمة استانبول، والذي تحول إلى متحف حالياً، وفي بداية القرن السابع عشر أصبح السنجق بحالة يرثى لها، حيث تمت زيادة القطع إلى ثلاث قطع من الحرير الأخضر ليصبح السنجق ثلاثاً: الأول يخرج مع الجيوش، الثاني مع السلطان في خروجه خارج العاصمة، والأخير بقي في خزانة القصر[١٥٦].

لكننا وجدنا خبراً عند ابن القاري حول تجديد ثوب المحمل وعمل سنجق قوي مليح سنة ١١٧٤هـ[١٥٧]، أي أنه لا علاقة له مع السنجق الشريف المحفوظ في العاصمة، لذلك لا نستطيع الترجيح وسط هذا التضارب الذي يزيده ما أورده الدكتور إلياس جريج في كتابه «ولاية بيروت ١٨٨٧ - ١٩١٤»، حيث يروي قصة مغايرة تماماً «لقصة راية النبي (ص)»، يقول: «إن السلطة العثمانية عملت على تغطية دعوتها إلى "الجهاد

---

(١٥٦) الموسوعة الإسلامية، مج٩، ص١٤.

(١٥٧) ابن القاري، الوزراء الذين حكموا دمشق، ضمن كتاب «ولاة دمشق في العصر العثماني»، تحقيق: صلاح الدين المنجد، ص٨٣.

المقدس" بالإسلام في بداية الحرب العالمية الأولى، بأن أرسلت في طلب "راية النبي (ص)"، والمجيء بها من المدينة المنورة إلى دمشق لتتحصن بها، وتعلن أنها تعمل على حمايتها من الكفار أعداء الدين، المتمثلين بالدول الثلاث: بريطانيا العظمى، فرنسا، وروسيا. وقد جرى الإعلان عن ذلك في صحف بلاد الشام حتى يتبرك منها أفراد الجيش قبل ذهابهم إلى الحرب. وقد انطلقت الراية بموكبها من المدينة بالقطار في أول كانون الأول ١٩١٤م، ووصل الموكب إلى دمشق في ١٥ منه، حيث جرى لها احتفال مهيب كان على رأسه جمال باشا السفاح، ثم نقلت إلى "بيت المقدس" عن طريق "نابلس" ووصلت إليها في ٢٠ كانون الأول[١٥٨]. كما نتوقع أن يكون استخدام ما يسمى راية النبي (ص) خلال الفترة المنوه عنها أعلاه، هو ما وسم السنجق بقدسيته المتعارف عليها «فيما بعد».

موعد الخروج:

يذكر الصيادي أنه في اليوم الثالث بعد موكبي الزيت والشموع أي في الرابع من شوال. أما المكناسي فيذكر أنه قبل سفر الركب بثلاثة أيام[١٥٩]، وعلي خان يذكر أنه في ١٤ شوال[١٦٠].

المسار:

يخرج السنجق الشريف من المكان الذي وُضع فيه، وهو مختلف بحسب المصادر، فعند نعيسة يترك السنجق - مع

---

(١٥٨) نقلاً عن زاوية حمزة عليان، «راية النبي» بجريدة القبس، عدد ١٢٣٦٦، سنة ٣٦، تاريخ ٢٤ شوال ١٤٢٣هـ، ٤ نوفمبر ٢٠٠٧.

(١٥٩) المكناسي، . رحلة، تحقيق: محمد بوكبوط، ص٢٤٧.

(١٦٠) عسكر، علي قاضي، رحلة الحاج علي خان اعتماد السلطنة.

المحمل – في الكيلار باتجاه جامع السنجقدار، حيث يُخرجان مع صلاة الظهر باتجاه السنانية ليقوم السنجق وحده بدورته الاعتيادية[١٦١]. أما العلاف والصيادي[١٦٢]، فيذكران أنه ينطلق من القلعة، وبشكل أكثر تحديداً من مسجد الصحابي أبي الدرداء[١٦٣] عند العظمة[١٦٤]، ثم من بابها الشرقي. ويسير في الأماكن التالي ذكرها تتقدمه فرق الموسيقى السلطانية برفقة المؤذنين وعموم سناجق القطعات العسكرية ونقيب الأشراف:

- سوق البوابجية[١٦٥].
- الأبارين[١٦٦].
- المحايرية[١٦٧].
- السروجية[١٦٨].

---

(١٦١) نعيسة، يوسف، مجتمع مدينة دمشق، ج٢، ص٦٦٧.

(١٦٢) العلاف، أحمد حلمي، دمشق في مطلع القرن العشرين، ص٥٦.
الصيادي، محمد بن حسين عربي كاتبي، الروضة البهية في فضائل دمشق المحمية، تحقيق: صلاح الدين خليل، ص١٢٦.

(١٦٣) مسجد أبي الدرداء: ما يزال بقلعة دمشق وينسب للصحابي عويمر بن زيد بن قيس أبي الدرداء الأنصاري الخزرجي. الشهابي، قتيبة، معجم دمشق التاريخي، ج٢، ص٢٢٥.

(١٦٤) العظمة، عبد العزيز، مرآة الشام، تحقيق: نجدة فتحي صفوة، ص١١٤.

(١٦٥) البوابجية المفرد منها البوابجي أي صانع البوابيج ومفردها بابوج وهو نعل أصفر يلبسه أهل العلم والفقراء من الطلبة ونساء الفلاحين والعجائز. القاسمي، جمال الدين، قاموس الصناعات الشامية، ص٥٧-٥٨.

(١٦٦) راجع الرقم (١٢٧).

(١٦٧) سوق المحايرية: نجد عند الشهابي ثلاثة أسواق تعرف بالمحايرية وهم صناع الصناديق الخشبية للفواكه. أقربها لدراستنا من حيث ارتباطها بالموقع التالي وهو السروجية. وثالثها ذلك الذي لا يزال قائماً في شارع الملك فيصل قبالة الطرف الجنوبي لسوق الهال بين سوقي الحدادين والسروجية وأصبح اليوم يبيع الصابون والمنظفات. الشهابي، قتيبة، معجم دمشق التاريخي، ج٢، ص٥٣.

(١٦٨) راجع الرقم (١٢٨).

- جامع السنجقدار[169]، حيث يوضع إزاء القبر حتى أداء صلاة العصر. ثم إلى المشيرية[170]، ويوضع في قاعتها الكبرى وتتلى قصة المولد النبوي الشريف تيمناً وتبركاً، ويظل ليلة في هذه الدائرة تحت حراسة الجند.

كما جرت العادة على إطلاق المدافع عند خروجه من القلعة ولدى وصوله إلى الجامع وعند خروجه منه وحين دخوله من باب السرايا[171]. إن وصف الرحالة المكناسي لغسل السنجق الشريف الموجود في القلعة يكاد يكون الوحيد في رحلته المخصصة للحديث عن الحج إلى الأماكن المقدسة عام ١٧٨٥م، حيث أقام بدمشق ٢٨ يوماً:

«أتوا بصندوق وفتحوه وأخرجوا منه علم النبي (ص) وأحضروا قصعة من النحاس وأباريق من ماء الورد والطيب والبخور ثم غسلوا جامور العَلَم وهو من الذهب بماء الورد في تلك القصعة ثم طافوا على الحاضرين بتلك الغسالة فشرب الناس منه تبركاً وتمسحوا به وبخروه وركبوه في عصاه، وبعد الانتهاء من تقليد الغسل يرفع خارجاً من القلعة وسط أصوات الطبول، ويسلم العلم لقائد ركب الحج بحضور القاضي والمفتي، وتخرج مدافع كثيرة في مهرجان عظيم إيذاناً بخروج الوزير (والي الشام) والعلم للأماكن المقدسة»[172].

---

(١٦٩) راجع الرقم (١١٧).

(١٧٠) راجع الرقم (١١٨).

(١٧١) العظمة، عبد العزيز. مرآة الشام. تحقيق: نجدة فتحي صفوة. ص١١٤.

(١٧٢) المكناسي. رحلة. تحقيق: محمد بوكبوط. ص٢٤٧. للمزيد حول الرحالة العرب الذين زاروا الحجاز راجع مقدمة الجاسر. محمد. أشهر رحلات الحج. ملخص رحلتي ابن عبد السلام الدرعي المغربي. دار الرفاعي. الرياض. ١٩٨٢ أما الرحالة الغربيون فانظر:

DUGUET Docteur. - LE PELERINAGE DE LA MECQUE. Au point de vue religieux, social et sanitaire, pp 285-296.

حينما نعود للجزء الذي خصصه نعيسة لموكب المحمل والسنجق، نستخلص أن تقليد الاكتفاء بموكب السنجق ثم الخروج في اليوم التالي للسفر قد ظهر متأخراً في القرن التاسع عشر، لكن تأكيد المكناسي على دورة السنجق المنفصلة ثم خروجه بعدها في موكب السفر، يدفعنا للاعتقاد أن الوصف المذكور بتفاصيله - طبعاً لا نقصد الجزء المستخلص من ابن كنان - مأخوذ من إيزابيل بورتون[١٧٣]، وأن هذا الوصف هو لموكب السفر. في البداية يَترُك المحمل والسنجق الكيلار باتجاه جامع السنجقدار، ويذكر أن ذلك مترافق مع انتهاء صلاة الظهر في الجامع، فأي رابط بين الحدثين في هذا؟ ثم نفاجأ بدخول السنجق وحده، فأين ذهب المحمل؟ وحين نعود للمصدر نرى أن المحمل والسنجق يخرجان من الكيلار إلى جامع السنجقدار، وبعد صلاة الظهر يعودان ليخرجان، ويعرض السنجق في ساحة المشيرية لكن دون المحمل ليكمل دورته، أي أن المحمل يبقى في المشيرية، ومن النص نلمح ذكر السروجية، أي أننا نسير على نفس المسار المذكور في بقية المصادر، كل ذلك يدفعنا لأن نرجح أن هذه محاولة منه للجمع بين الوصفين.

ومنذ ساعات الصباح الباكر يخرج الدمشقيون ومن جاءهم من القرى المحيطة بدمشق لمشاهدة الحدث، فتمتلئ الأزقة والشوارع بهم ويحاول كل شخص أن يكون قريباً من الموكب، وكثيرون يعتلون الأسطح والأماكن العالية بغية الحصول على رؤية أفضل، في وقت تكون فيه المدينة في عطلة في أغلب الدوائر الرسمية والأسواق، خاصة تلك التي على طريق الموكب.

---

(١٧٣) BURTON .Isabelle The inner life of Syria, Palestine end the holy Ian, PP 56- 57

موكب السنجق والمحمل:

يسير الموكب خلال العصر كله دون تمييز.

موعد الخروج:

حسب الصيادي كان الخروج في اليوم التالي لموكب الشموع والزيت، بينما يشير ابن كنان إلى ١٦ شوال، وهو الأقرب للتاريخ التقليدي لخروج القافلة(١٧٤).

المسار:

ينطلق المحمل مع السنجق من باب السرايا في بداية سوق الدرويشية(١٧٥)، ويسير في الطريق السلطاني إلى الميدان(١٧٦)، باب مصر(١٧٧)، قرية القدم(١٧٨)، تجاه جامع العسالي(١٧٩).

---

(١٧٤) الصيادي، محمد بن حسين عربي كاتبي. الروضة البهية في فضائل دمشق المحمية. تحقيق: صلاح الدين خليل. ص١٢٦.
ابن كنان الصالحي. المواكب الإسلامية. تحقيق: حكمت إسماعيل. ج٢. ص٤٢٨.
العلاف. أحمد حلمي. دمشق في مطلع القرن العشرين. ص٥٧.

(١٧٥) الدرويشية: محلة في غرب دمشق نسبت للمجموعة المعمارية التي بناها والي دمشق العثماني درويش باشا سنة ٩٨٢هـ وتضم جامعاً ملحقاً به مكتب (مدرسة). مدفناً وسبيل ماء. الشهابي، قتيبة، معجم دمشق التاريخي، ج٢، ص١٢٠.

(١٧٦) راجع الرقم (٨٠).

(١٧٧) باب مصر: يعرف كذلك بباب الله وهو في اقصى جنوب الميدان حيث ساحة محمد الأشمر اليوم. الشهابي. قتيبة. أبواب دمشق. ص٢٣٥.

(١٧٨) القدم: قرية جنوب دمشق امتد العمران إليها كغيرها من القرى وأصبحت جزءاً من نسيج المدينة، كانت تعرف بضاحية القدم لوجود مسجد القدم فيها. كرد علي، محمد، غوطة دمشق. ص٢٣٧.
ابن عبد الهادي، يوسف. ثمار المقاصد في ذكر المساجد. تحقيق: محمد أسعد طلس، ص٢٤٤-٢٤٥.

(١٧٩) جامع العسالي: من جوامع العهد العثماني شيده الوزير أحمد باشا كوجك سنة ١٠٤٦هـ حيث دفن فيه رأسه بعد أن قتل في أحد الوقعات ضد الصفويين. ينسب بعمارته لشيخ صوفي هو أحمد بن علي العسالي المتوفى بدمشق سنة ١١٤٨هـ كما جعل فيه تكية سبيلاً للناس. ابن عبد الهادي. يوسف، ثمار المقاصد في ذكر المساجد. تحقيق: محمد أسعد طلس. ص٢٣٩-٢٤٠.

حسب ابن كنان ينزل القضاة بقبة الحج مقابل الجامع المذكور، ويسلمون حجة التسليم للباشا الذي يأخذ حمل المحمل هناك. وكانت العادة المستمرة من العهد المملوكي أن يتم التوقف قبلاً عند قبة يلبغا، كما في سنة ٩٣٠هـ حيث بقي الركب هناك ثلاثة أيام[١٨٠]، ومن ثم يدخل الجميع إلى تكية أحمد باشا ويتناولون ضيافة متولي الخانقاه من طعام وشراب حسب وصية الباني[١٨١].

يذكر العظمة أن القافلة حينما تصل للدكة المخصصة للمحمل، فإن والي الشام ومشير جيشها (قائد القوات العسكرية) يكونان قد سبقاها في الوصول إلى ذلك المكان، بعدها توزع الحلوى والمرطبات ثم يوضع المحمل واللواء (السنجق) بعد تسليمها إلى محافظ الحج (أمير الحج) في صناديق محكمة يتولى حراستها الجند ويبيتان ليلتهما في العسالي[١٨٢].

لابد من التنويه هنا أنه حتى بعد مدّ سكة حديد الحجاز بقي المحمل يتوقف عند نقطة القدم تجاه الجامع بالشخصيات الدينية والعسكرية ذات المناصب العليا والمرموقة مع الموسيقى الصادحة وأرتال الجند تجتاز المكان المذكور سابقاً[١٨٣].

---

(١٨٠) ابن طولون، حوادث دمشق اليومية، تحقيق: أحمد ايبش، ص١٧٢.
قبة يلبغا: بناها نائب دمشق المملوكي كرمز لانتصاره بخلع السلطان ومن المعتقد أن القبة التركية القائمة أمام زاوية العسالي قامت على أنقاضها. الشهابي، قتيبة، معجم دمشق التاريخي، ج٢، ص١١٥.

(١٨١) ابن كنان الصالحي، المواكب الإسلامية، تحقيق: حكمت إسماعيل، ج٢، ص٣٤٨-٣٤٩.

(١٨٢) العظمة، عبد العزيز، مرآة الشام، تحقيق: نجدة فتحي صفوة، ص١١٥.

(١٨٣) الصيادي، محمد بن حسين عربي كاتبي، الروضة البهية في فضائل دمشق المحمية، تحقيق: صلاح الدين خليل، ص١٢٨.

المشاركون والاستعراض:

كان كل أصحاب الوظائف السياسية والدينية والعسكرية يحرصون على الحضور والمشاركة ويتقدمون جملي المحمل والسنجق الذي كان خلف الأول، في حين أن أصحاب الطرق الصوفية كانوا يحيطون بالمحمل وتصدح الموسيقى مع الفرقة الموسيقية في الخلف يليها فصائل العسكر المختلفة والشرطة (البوليس والجندرمة)[١٨٤].

ولا يخرج العظمة عن هذا الوصف والترتيب وهو الذي عاصر المواكب الأخيرة منها قبل توقفها، فنجد أصحاب المراتب والوظائف الكبرى في المقدمة (أمين الصرة، نقيب الأشراف، محافظ الحج) مع فرقتين موسيقيتين عسكريتين. أمام وخلف المحمل والسنجق، وفي نقاط متقاربة على جانبي الطريق، كانت فصائل من الجند تؤدي التحية للموكب إضافة للمظاهر العسكرية من الجند والشرطة[١٨٥]، وأصحاب الطرق الصوفية الذين لعبوا الدور الأكثر أهمية من باقي المشاركين كون المحمل وجمله يتوقفان عند دار سعد الدين الجباوي (على الأغلب فإن العلاف قصد ونحن ننقل منه الزاوية السعدية التي في الميدان)، حيث يتقدم أحد شيوخ الأسرة ويقدم للجمل اللوز والسكر كما يتلقف الناس الفتات تبركاً[١٨٦].

---

(١٨٤) الصيادي، محمد بن حسين عربي كاتبي، الروضة البهية في فضائل دمشق المحمية، تحقيق: صلاح الدين خليل، ص١٢٨ .

(١٨٥) العظمة، عبد العزيز، مرآة الشام، تحقيق: نجدة فتحي صفوة، ص١١٥ .

(١٨٦) العلاف، أحمد حلمي، دمشق في مطلع القرن العشرين، تحقيق: علي جميل نعيسة، ص٥٧ .

ايبش، أحمد، دفاتر شامية عتيقة، ص١٧٦ .

BURTON .Isabelle, The inner life of Syria, Palestine end the holy land, pp 65

سعد الدين بن مزيد الجباوي الشيباني متصوف مشهور من أهل جبا من قرى محافظة القنيطرة الحالية. كان في بدء أمره من قطاع السبيل ثم تاب وتنسك وأقام مع أبيه في زاوية بدمشق واشتهر. وهو مدفون في جبا. ذكر وفاته سنة ٦٢١ . الزركلي، خير الدين، الأعلام، ج٣، ص١٣٣ .



جمل المحمل محاطاً بالعسكر والناس المحيطين بساحة الحدث، المكان ساحة المرجة وخلفه بشكل ابعد ولصفر السنجق.

الركب:

يقوم الحجاج الذين يؤلفون الركب بالتوجه شطر القبلة نحو الأماكن المقدسة في الحجاز حيث يقومون بالمسير على مراحل، وعند نهاية كل مرحلة يستريحون للبدء بالأخرى وفق نظام محدد .

تعددت المصادر التي تحدثت عن تلك المراحل وأماكن التوقف والاستراحات لذلك لن نخوض فيها(١٨٧).

---

(١٨٧) للمزيد حول المنازل راجع:
ابن كنان الصالحي، المواكب الإسلامية، تحقيق: حكمت إسماعيل، ج٢، ص٢٥١-٢٥٤.
حلمي، إبراهيم، المحمل، ص٢٩-٣٩.
بكر، سيد عبد المجيد، الملامح الجغرافية لدروب الحجيج، ١٧٦-١٧٩ .

تنصب الخيام على شكل مدينة صغيرة ذات أزقة متعددة تُنار بالمشاعل التي توقد من القطران وداخل الخيم بالشموع.

يتولى أشخاص عديدون المهام داخل الخيم لخدمة الحجاج ومنهم:

- المقوّم: هو رجل يملك عدداً وافراً من الجمال الصالحة بأدواتها، ويقوم بجميع لوازم مستخدميها، ويعمل على إيجارها وذلك حسب الحاجة والمال، حيث غالباً ما يؤجر أدوات الركوب والخيام، بل وحتى يقدم الطعام والشراب، فيكون الحاج بذلك بمثابة النازل في فندق.
- العكّام: هو شخص يقوم بخدمة الإبل وخدمة الحجاج في مختلف الأمور مقابل أجر معين، وأعلاهم مرتبة قادة المحفات وزعيمهم يسمى باش عكام.
- حاملو الخيام المهاترية: يتخصصون بالخيام ومستلزماتها، وكذلك نصبها وفق نظام محدد وبوضع هندسي. زعيمهم يسمى باش مهاتري.
- السقاؤون: لتأمين الماء خلال المسير ولهم مثل الوظائف الأخرى زعيم يشرف على عملهم.

وفي أوقات الحطّ والاستراحة يتزاور الحجاج مع بعضهم ويتسامرون ويتحدثون في الخيام التي يعلم كل حاج موقع خاصته منها، ولا يتغير ذلك الموقع طوال طريقي الذهاب والعودة.

وزادنا العظمة بوجود مقاهٍ سيّارة ترافق الركب في مسيره، يشرب الحجاج فيها القهوة ويدخنون النرجيلة.

كما جرت العادة على إطلاق المدافع عند الصلوات وعند النزول والرحيل بفاصل زمني يصل لنصف ساعة حتى لا يتأخر

أحد عن الركب ويتوه، وفي هذه الحالة نجد ما يسمى بالحج العقيلي وهو نحو ١٠٠ من الإبل يتخلفون عن الركب الرئيسي حتى ينظروا هل تخلف منها شيء أو أحد ما[١٨٨].

المحمل في المدينة المنورة:

يصل الركب إلى المدينة المنورة في أواخر شهر ذي القعدة وغالباً في ٢٢ منه، حيث يتم إبلاغ أهل المدينة بمرسال[١٨٩].

وما إن يصل المحمل والركب حتى تتم تحيته بإطلاق مدفع من القلعة التي تتواجد بها الحامية العثمانية بالمدينة ويستقبله جميع الموظفين والرؤساء والأعيان والعامة ظاهر المدينة[١٩٠].

ومع دخوله يبقى المحمل تحت عناية واهتمام كبيرين، حيث يحمل بواسطة أربعة رجال يلبسون عمامةً وثوباً أبيض احتفالاً بهذه المناسبة في ساحة المسجد النبوي الكريم.

أما السنجق فيتم وضعه على قبر الرسول (ص) خلال مدة تواجد الركب بالمدينة، وهي عادةً ٥ أو ٦ أيام مع ما يرافقها من طقوس ومراسم[١٩١].

---

(١٨٨) العظمة، عبد العزيز. مرآة الشام. تحقيق: نجدة فتحي صفوة. ص١١٤-١١٦ .

(١٨٩) TRESSE. R. Le pèlerinage Syrien aux villes saintes de l'Islam, p 232-233

(١٩٠) السنوسي، محمد. الرحلة الحجازية. تحقيق: علي الشنوفي. ج٢، ص١١٩ .

(١٩١) TRESSE. R. Le pèlerinage Syrien aux villes saintes de l'Islam, p 232

المحمل في مكة المكرمة:

يدخل الركب مع المحمل مكة المكرمة عادةً بين ٥ و٧ ذي الحجة حيث يزور شريف مكة أمير الحج.

وفي اليوم التالي يكون الدخول الرسمي مع الأبهة والعظمة اللائقة حيث يعبر شوارع المدينة المقدسة باتجاه الحرم المكي[١٩٢].

وفي التراث الشفهي للحجاز ما زال المحمل وجمله موجودين في مصطلح «اهديب الشام»، وهو جمل ضخم مزين بالخرز والأشرطة اللامعة يشاهد على أبواب مكة بداية الحج تحيطه حراسة مشددة ويسير في موكب مهيب عبر الشوارع يتمايل على أنغام الدفوف ويرقص على أنغام الطبول ويتوقف بين لحظة وأخرى لشرب النرجيلة أو سجائر الدخان وبالتالي اشتهر في المأثور الشعبي بكونه «بعير يشرب التتن» وهذا الوصف يتطابق من حيث الاهتمام به مع جمل المحمل كما أنها تدل على مدى القدسية التي تمتع بها[١٩٣].

في الثامن من ذي الحجة تتجهز قافلة المحمل لمغادرة مكة إلى عرفة حيث يوضع المحملان هناك في اليوم التالي أسفل جبل الرحمة في مكان مرتفع عن الأرض ومسور، وتُعدُ لهما مصطبة مرتفعة في ثلث الجبل وفوقها خطيب راكب على

---

(١٩٢) TRESSE. R. Le pèlerinage Syrien aux villes saintes de l'Islam, p 234-235

(١٩٣) المطيري. سعود. اهديب الشام جمل يتعاطى التتن ويرقص على الطبول..؟؟ جريدة الوطن السعودية. العدد ١٤٤١٣. الاثنين ٢٠ ذي القعدة ١٤٢٨ هـ. ١٠ ديسمبر ٢٠٠٧م.



معسكر المحمل في عرفات.

رسم المحمل وأميره بملابس الاحرام بعرفات.

جمل وبجانبه بيرق أحمر وسط التلبية والبكاء والتضرع. عند الغروب يطلق صاروخ كي يعلم الحاضرون أن المناجاة بعرفة تمت ثم يصطف العساكر والفرسان التابعون للمحملين على الطرفين وفي وسطهم يوضع المحملان متجاورين، المصري يميناً والشامي يساراً، وأمام كلٍ منهما أميره وأمينه وسط الجموع الغفيرة والطبول والموسيقى حتى الوصول للمزدلفة ليلاً، حيث يوضع المحملان في محل مخصوص إلى أن يحين وقت السير في العاشر من ذي الحجة إلى المشعر الحرام ثم إلى مِنى أول أيام العيد. خلال هذا اليوم يقضي الحاج مناسك الحجَ.

في حين أن أمراء القوافل والأمناء يذهبون في الحادي عشر من ذي الحجة إلى شريف مكة للتهنئة بالعيد، وبورود الفرمان السلطاني بتوليته من الآستانة[194].

يعود المحملان في الثاني عشر من ذي الحجة إلى ساحة المسجد الحرام بينما تبقى أيام قليلة لمغادرة المدينة المقدسة (١٦-٢٩ ذي الحجة).

---

(١٩٤) من كتاب مشعل الحج لمحمد صادق باشا. وأرقام الصفحات هي لكتاب بدر الحاج. المملكة العربية السعودية.

صور من الماضي، محمد، صادق باشا، مشعل الحج، ص١١٩.

وداع المحمل:

يقف الوالي وشريف مكة أمام المحامل بباب الصفا، أحد أبواب الحرم المقدس، حيث تتواجد الفرق لتحية المحملين، ثم يدور الجمل الحامل للمحمل ٣ مرات حول الساحة حيث يُقَبِّل المقود الخاص بالجمل ويسلم لأمين الصرة.

وفي بعض الأحيان يقود الأمير بنفسه الموكب للخروج من مكة(١٩٥).

الفرق بين المحملين الشامي والمصري:

حسب محمد صادق باشا الذي اعتاد رؤية موكب المحملين سوية في شعائر الحج بمكة، فإن المحمل الشامي يختلف عن المصري بأنه أقل عرضاً منه وقبته عالية بالنسبة لعرضه، أما من حيث الكسوة فالاثنان من الحرير الأطلس لكن المصري أحمر والشامي أخضر(١٩٦).

الجردة:

عادةً ما كانت الدولة في العهد العثماني تقوم بتكليف أحد ولاتها (حلب، طرابلس، صيدا، غزة..الخ) بإعداد قافلة

---

(١٩٥) TRESSE. R. Le pèlerinage Syrien aux villes saintes de l'Islam, p 239

(١٩٦) العظمة، عبد العزيز. مرآة الشام. تحقيق: نجدة فتحي صفوة. ص١١٦.
البديري، أحمد. حوادث دمشق اليومية. تنقيح الشيخ محمد سعيد القاسمي، ثم أحمد عزت عبد الكريم. المقدمة. ص٦٩-٧٠.
المكناسي. رحلة. تحقيق: محمد بوكبوط. ص٢٨٣.

الجردة المكونة من المؤن اللازمة للحجاج، خاصة وأن الحجاج قد استنفذوا كثيراً من احتياطاتهم في طريق العودة، ويصحبها جنود لحراستها من النهب.

تدخل الجردة دمشق في منتصف شهر ذي القعدة وتبقى لبعض الوقت، ثم تنطلق بنفس طريق الركب لمدة ٢٢ يوماً إلى مكان يعرف بهدية شمالي المدينة المنورة، وهناك ينتظر القائمون عليها الحجيج الذي يقضي بعد وصوله عدة أيام مع قافلة الجردة قد تصل لـ ١١ يوماً.

توقّف إرسال الجردة سنة ١٨٥٩م، وبعد فترة تم إرسال قوة عسكرية من ٣٠٠ جندي لحراسة الأهالي الذين يودون لقاء ذويهم حاملين المؤن، واستمر ذلك حتى مد سكة حديد الحجاز[١٩٧].

الجوخدار:

يصل الجوخدار في أواخر شهر محرم ليبشر أهل دمشق بسلامة الحجيج إن كان قد عاد سالماً أو ليطلب النجدة إن تعرض الركب للعدوان من قبل الأعراب غالباً.

يتقدم الجوخدار الموكب بنحو سبعة أيام برفقة بعض الجند حيث ينفصل عنها بتبوك، وهو جوخدار الباشا أما جوخدار السلطان فكان يسمى مزدجي.

---

(١٩٧) الحاج، بدر، المملكة العربية السعودية، صور من الماضي، ص١١٩.

الكتاب:

يصل إلى دمشق مباشرة بعد الجوخدار بثلاثة أيام، وهو الشخص الذي يرسله أمير الحج ليحمل كتب الحجاج لذويهم، وقد يكون هناك أكثر من شخص لتنفيذ هذه المهمة، واحد لدمشق وآخر لحلب وحماة.

يصل الحجاج بعد الكتاب بثلاثة أيام بين ٢-٥ صفر، ويستمر دخولهم المدينة نحو ٥ أيام[١٩٨].

وقد يذهب بعض السكان لاستقبال الحجيج من أماكن مختلفة، تبتدئ من الكسوة وتمتد أحياناً إلى الزرقاء، ويعودون معهم فرحين بلقائهم وتقام لهم الأفراح عقب وصولهم سبعة أيام بلياليها.

ويتوافد الناس عليهم للمباركة والتسليم، فرحين بالهدايا التي توزع عليهم (تمر المدينة - ماء زمزم...الخ)[١٩٩].

موكب العودة:

يدخل المحمل الشريف المدينة في السادس من صفر يرافقه أمير الحج[٢٠٠]. ولم يكن استقبال القافلة يتم دائماً بموكب فخم، بل لعبت الظروف الأمنية دوراً كبيراً في تحديد ذلك.

---

(١٩٨) البديري، أحمد، حوادث دمشق اليومية، تنقيح الشيخ محمد سعيد القاسمي، ثم أحمد عزت عبد الكريم، المقدمة، ص٧١-٧٢.
(١٩٩) العظمة، عبد العزيز، مرآة الشام، تحقيق: نجدة فتحي صفوة، ص١١٦.
(٢٠٠) ابن كنان الصالحي، المواكب الإسلامية، تحقيق: حكمت إسماعيل، ج٢، ص٢٥٦.

سكة حديد الحجاز:

في بدايات القرن العشرين ومع التطور الكبير الذي شهده العالم، كان لا بد من تخفيف معاناة الحجاج واختصار المسافة بين دمشق والبقاع المقدسة، حيث تم البدء بتنفيذ ما يسمى الخط الحديدي الحجازي سنة ١٣١٦هـ/١٨٩٩م بعد حملة من التبرعات من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، ولا تعدو محطاته بمجملها المحطات القديمة والتاريخية لدرب الحج[٢٠١]، وكانت عملية الإنجاز قد استمرت على خمس مراحل يوضحها الجدول التالي[٢٠٢]:

الانتهاء	المرحلة
١٩٠٣	دمشق - درعا
أواخر ١٩٠٣	درعا - عمان
١٩٠٤	عمان - معان
١٩٠٦	معان - تبوك
١٩٠٦	تبوك - مدائن صالح

المحمل وتوقفه:

مع بداية الحرب العالمية الأولى وانهيار الإمبراطورية العثمانية، توقف توجه المحمل الدمشقي إلى مكة المكرمة لكن هل انسحبت تقاليده من الحياة الدمشقية؟

---

(٢٠١) الصيادي، محمد بن حسين عربي كاتبي. الروضة البهية في فضائل دمشق المحمية، تحقيق: صلاح الدين خليل. ص١٣١ .

(٢٠٢) الشهابي، قتيبة. دمشق تاريخ وصور. ص١٣٢-١٣٣ .

يخبرنا الشهابي أن مساحة الأرض التي كانت مقابل التكية السليمانية[٢٠٣]، أصبحت فيما بعد مركزاً لتجمع الدمشقيين مع محملهم العزيز، للتحرك في شوارع المدينة بشكل أشبه ما يكون بالماضي القريب، حيث استمر إحياء هذه التقاليد حتى أربعينيات القرن العشرين[٢٠٤].

المحمل في التصوير الضوئي:

وصل التصوير الضوئي إلى الشرق بداية مع الأوربيين الرحالة، ثم مع الذين استقروا في المنطقة منهم وقاموا بتأسيس استوديوهات خاصة بهم، ولعل أشهرهم عائلة بونفيس[٢٠٥]، وأخيراً اشترك في المسألة أهل المشرق أنفسهم، لكن مع ذلك بقي إنتاجهم ثانوياً مقارنة بضخامة الإنتاج الأوروبي النهم للمشرق، بمقدساته ومدنه الغارقة بالأساطير، وليالي ألف ليلة وليلة والحلم الصليبي بالعودة للشمس المشرقة وإعادة تلك القلاع للحياة، إنه عصر النزعة الاستعمارية المتشدقة بضرورة «حضرنة» أولئك الساهين الغاطسين في العصور الوسطى.

---

(٢٠٣) التكية السليمانية المشيدة مكان القصر الأبلق من قبل السلطان سليمان القانوني سنة ٩٢٦هـ والمنسوبة إليه حالياً. هي المتحف الحربي من الغرب. والتي أقيم عليها فيما بعد المتحف الوطني. للمزيد حولها راجع الريحاوي. عبد القادر. روائع التراث في دمشق. ص٦٥-٧٥.
المتحف الوطني تأسس بداية في المدرسة العادلية التي أسسها الملك العادل أخو صلاح الدين. ثم انتقل للمبنى الجديد بعد بنائه غربي التكية سنة ١٩٣٦م. عبد القادر الريحاوي. العمارة العربية الإسلامية. ص١٧.

(٢٠٤) الشهابي. قتيبة. دمشق تاريخ وصور. ص١٩٩-٢٠٠. من مجموعة الصور التي ستنشر في بحثنا هذا تلك التي تشكل جزءاً من مجموعات لم تنشر. كتلك التي كانت في أرشيف الأستاذ أحمد ايبش.

(٢٠٥) عائلة بونفيس: مصور فرنسي (١٨٣١-١٨٨٥). قدم مع عائلته إلى لبنان. أنشأ استوديو تصوير يعد الأبرز في تاريخ التصوير الضوئي في المشرق. ثم شكل مؤسسة دعاها باسمه بقيت تنتج آلاف الصور خلال ٣٥ عاماً. الحاج. بدر. دمشق صور من الماضي ١٨٤٠-١٨٦٠م. ص٣٨-٣٩.

شكل المحمل واحتفالية خروجه موضوعاً مفضلاً في التصوير الفوتوغرافي، خاصة لكونه يرتبط بالتقليد الديني الإسلامي الأهم في الحياة الاجتماعية ألا وهو الحج.

سنحاول في هذا المبحث إحصاء ما نشر من صور متعلقة بالمحمل، وما وقع تحت أيدينا منها، وما هي إلا محاولة أولى عسى أن تلحقها محاولات أخرى. يقوم المنهج على ذكر كل كتاب والصور التي نشرت فيه، والملاحظ هنا وجود منحيين للدراسة: صور المحمل في دمشق، وتلك التي التقطت في الحجاز. كما نعتذر هنا لعدم إمكانية نشر جميع ما تحدثنا عنه من صور، لأن بعض ما هو موجود في المصادر المذكورة ذو مواصفات سيئة من الناحية الفنية، ما أدى إلى أن يكون نشرها من الصعوبة بمكان، وخاصة ما لا يمكن معالجة رداءة الوضوح فيه حال نشره.

١- بدر الحاج، دمشق صور من الماضي ١٨٤٠-١٨٦٠م:

يعد من أفضل الكتب التي تناولت تاريخ التصوير الضوئي في دمشق خاصة والمشرق عامة، بل يكاد يكون الوحيد في هذا المجال باللغة العربية.

صورة (ص ١٠٠) لفرانسيسكو إنديفيري[٢٠٦]، حوالي ١٩٠٠م، وهي تمثل جماهير الدمشقيين في ساحة المرجة، التعليق في أسفل الصورة بالفرنسية:

«L'étendard sacre déclarant le' départ de la caravane»

---

(٢٠٦) فرانسيسكو أنديفيري: مصور إيطالي نشط في دمشق بين عامي ١٨٩٦م و١٩٠٦م. لا تتوافر عنه معلومات كثيرة. اعتنق الإسلام واختار اسم محمد. صوره تركز على الجانب الرسمي ومنها المحمل. الحاج. بدر. دمشق صور من الماضي ١٨٤٠-١٨٦٠م. الصورة ص١٦٩ .

والتي تعني «السنجق الشريف معلناً انطلاق القافلة». المبنيان في الخلف هما مبنى البرق والهاتف إلى اليمين وخلفه مئذنة جامع يلبغا وقاسيون بينما العدلية إلى اليسار[٢٠٧]. ونلاحظ بشكل جلي البابين المفتوحين لحركة الداخلين والخارجين، وأمام مبنى العدلية هناك العربات التي تقل الشخصيات الهامة.



صورة قديمة لمحمل الحج الدمشقي والذي يوجد حالياً في متحف التقاليد الشعبية في قصر العظم.

في مقدمة الصورة جموع من الدمشقيين حول ركب السنجق الذي يمر في وسطها وخلفه مجموعة من البيارق والأعلام، وإذا دققنا النظر نجد أن الموكب يتكون من (بدءاً من أقصى اليمين): الفرقة الموسيقية العسكرية بأبواقها، صف من رجال الدين يليهم مجموعات الجند المرافقة للسنجق والأعلام والبيارق التي خلفه يحمل بعضهم ما يمكن تشبيهه بالبنادق. المشهد هو للخطوات الأولى لموكب السنجق، وإنا لنجد الجمالية النادرة في تلك الوجوه التي توجه نظرها باتجاه واحد هو الكاميرا.

صورة (ص ١٠٩) لنفس المصور السابق[٢٠٨]، مؤرخة سنة ١٨٥٩م وهذا يناقض ما ذكره في الحديث أن سنوات نشاطه

---

(٢٠٧) مبنى العدلية كان يحتوي على طابقين. الأرضي سجن التوقيف المؤقت المعروف عاميا بالنظارة. والطابق الأول للمحاكم. مبنى البرق والهاتف بجوار المبنى السابق من الشرق والمبنيان من نفس الطراز الأوروبي بلمسات عثمانية. حسب الشهابي فمن الأكيد أنهما شيدا قبل عام ١٨٩٠م. هدما في بداية خمسينيات القرن العشرين. الشهابي، قتيبة، دمشق تاريخ وصور، ص٣٢-٣٣.

(٢٠٨) الحاج، بدر، دمشق صور من الماضي ١٨٤٠-١٨٦٠م، الصورة ص١٧٠.

كانت بين عامي ١٨٩٦-١٩٠٦م، وبما أن اسم المصور واضح على الصورة فإننا نرجعها لحقبة الصورة السابقة. في أسفل الصورة مكتوب بالفرنسية:

«La cérémonie du départ de la caravane pour la Meque»

والتي ترجمتها «مراسم الاحتفال بانطلاق قافلة الحج إلى مكة». في وسط الصورة نجد النجم الأوحد (المحمل) محملاً على جمله بوضعية المناخ (أي الرابض)، يمسك بقياده أحد الأشخاص بملابس دمشقية تقليدية (المحملجي)، ويحيط به على الجانبين شخصيات من السلك الرفيع الذين شاركوا بالموكب. الصف الأمامي غالبيته من القادة العسكريين بملابسهم التقليدية مع السيوف (خاصة على الجانب الأيمن) والطربوش والنياشين المعلقة، الشيء الملاحظ هو غياب حضور الشخصيات الدينية والتي لا نشاهد منها في المقدمة سوى الشخص الأول قرب المحمل من اليسار، والرابع من نفس الجهة ونعتقد أنه مفتي دمشق، المكان هو دار المشيرية، ونلاحظ في الأعلى نوافذ الطابق الأول مع جزء من السطح ثم الطابق الأرضي وهو رواق يفتح على الحديقة بأقواس مدببة، حيث تجمع الأشخاص لالتقاط الصورة.

صورة (ص١٠٥) من تصوير مصور فرنسي مجهول سنة ١٨٨٧م[٢٠٩]، وتمثل موكب المحمل في طريق الميدان حيث نشاهد في منتصف اللوحة خطاً ممتداً من الواجهات لمبانٍ هي على الجهة اليمنى من الطريق المتوجه إلى حي الميدان الحالي، المئذنة هي لمسجد سيدي صهيب والبوابة المعقودة بالمقرنصات

---

(٢٠٩) الحاج. بدر. دمشق صور من الماضي ١٨٤٠-١٨٦٠م. الصورة ص١٧١ .

هي تربة أراق السلحدار[٢١٠]. نلاحظ صفاً من الجند على نفس الجهة بعد الناس المتجمهرين لرؤية الموكب، والذين انتشروا في مختلف الأماكن خاصة على الأسطحة، كما وصف الرحالة والمؤرخون الدمشقيون، وهي المكان المفضل للنسوة، كما يظهرهن في الصورة بجانب المئذنة.

الموكب غير منظم، جمل المحمل أمامه شخص على الحصان غير واضح جيداً، وخلفه كذلك رجل آخر يمتطي حصاناً خلف الشخص ذي المنصب الديني الأهم كما يبدو.

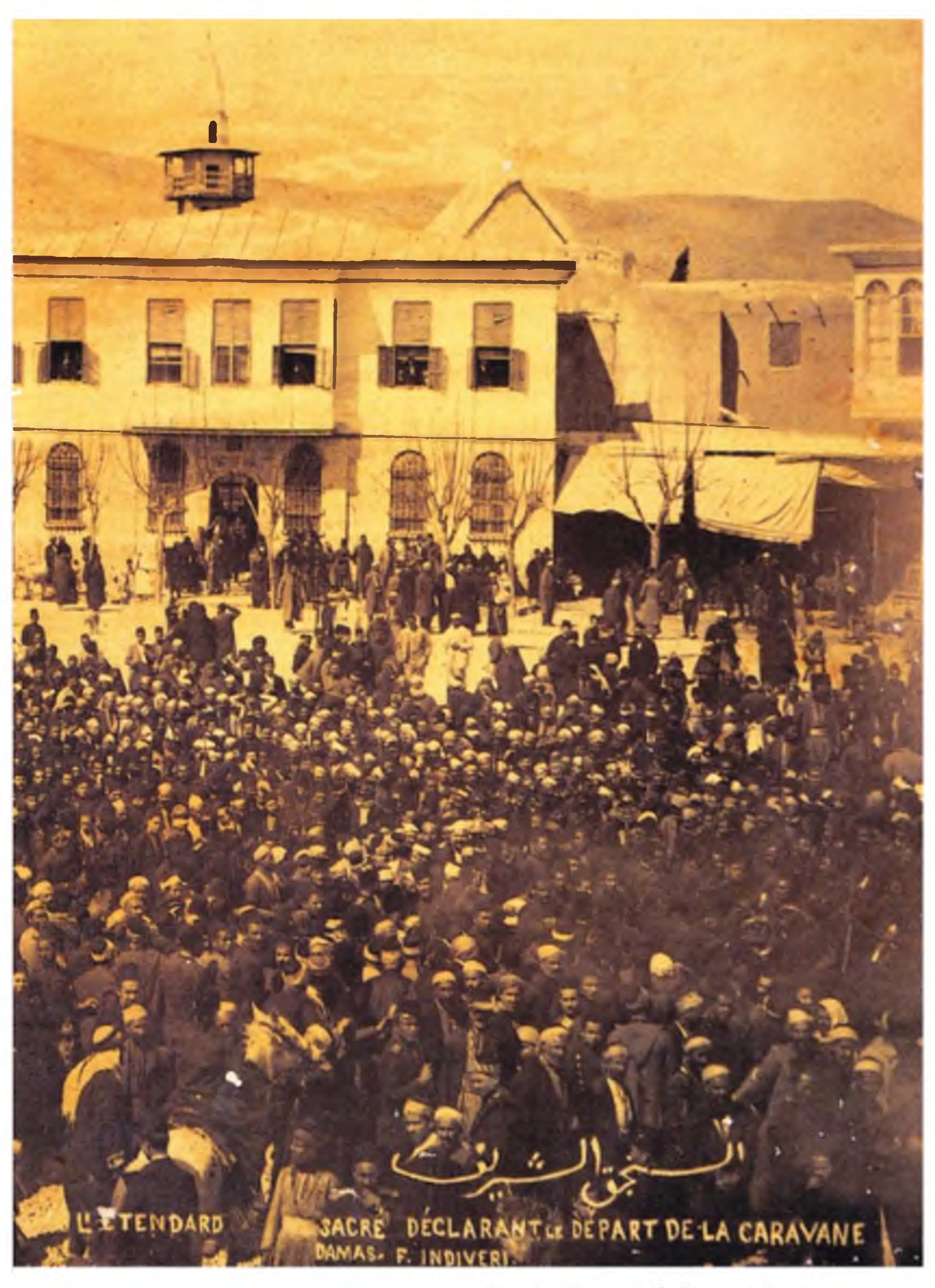
صورة (ص ١٠٦) لسليمان الحكيم حوالي العام ١٨٩٠م[٢١١]، الجملة القصيرة بالفرنسية تعني انطلاق قافلة لمكة، وهي الجملة التي نشاهدها غالباً في التعليق على المشهد في معظم الصور المتعلقة بموضوعنا.

المنظر في الصورة خير مثال لموكب نموذجي مقدم على السفر إلى الأماكن المقدسة، ونجد نفس الشخصية الدينية راكبة على الحصان ضمن جموع الجند والعسكر، والجنود الذين يقفون على طرفي الطريق يحملون بنادق.

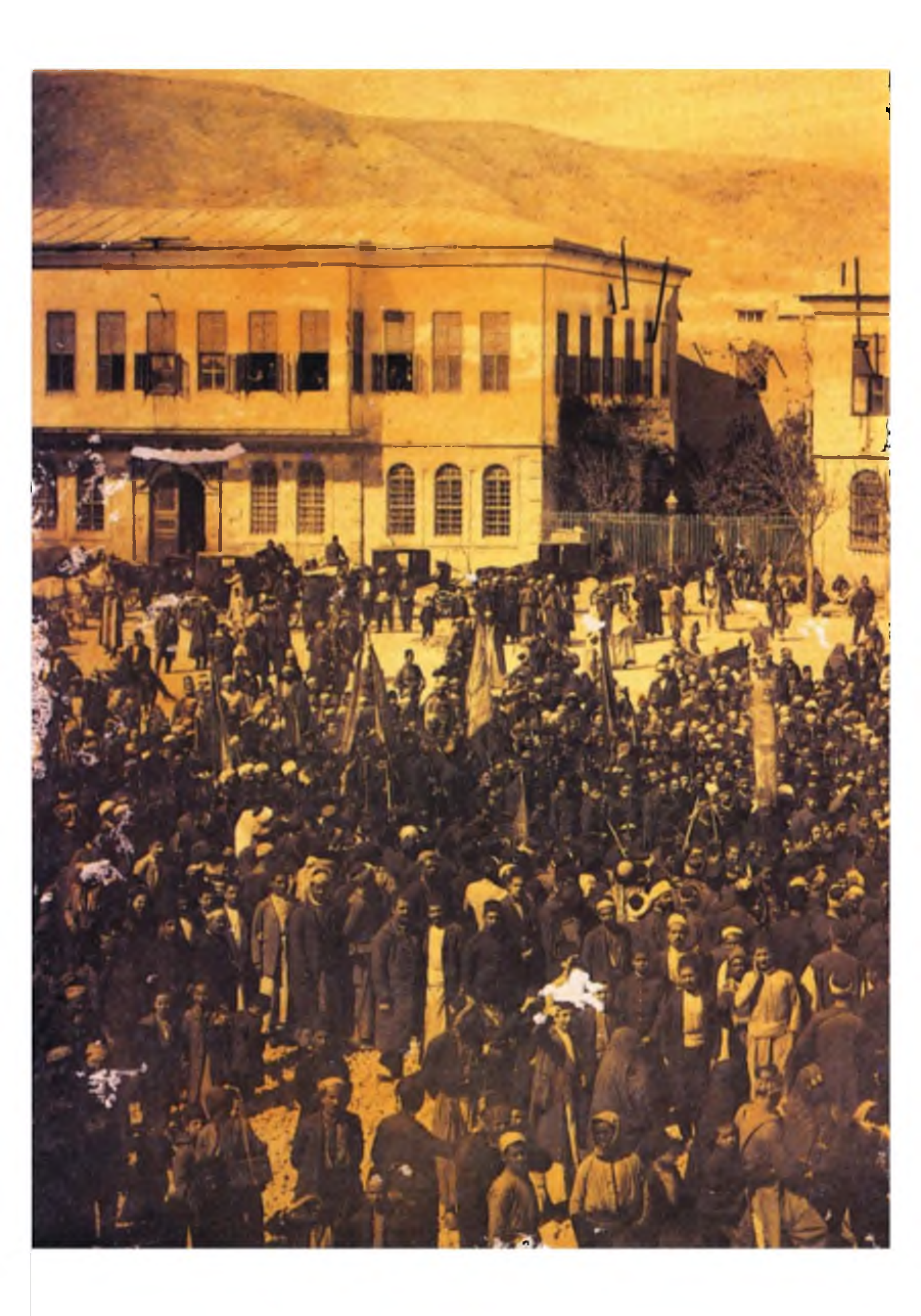
---

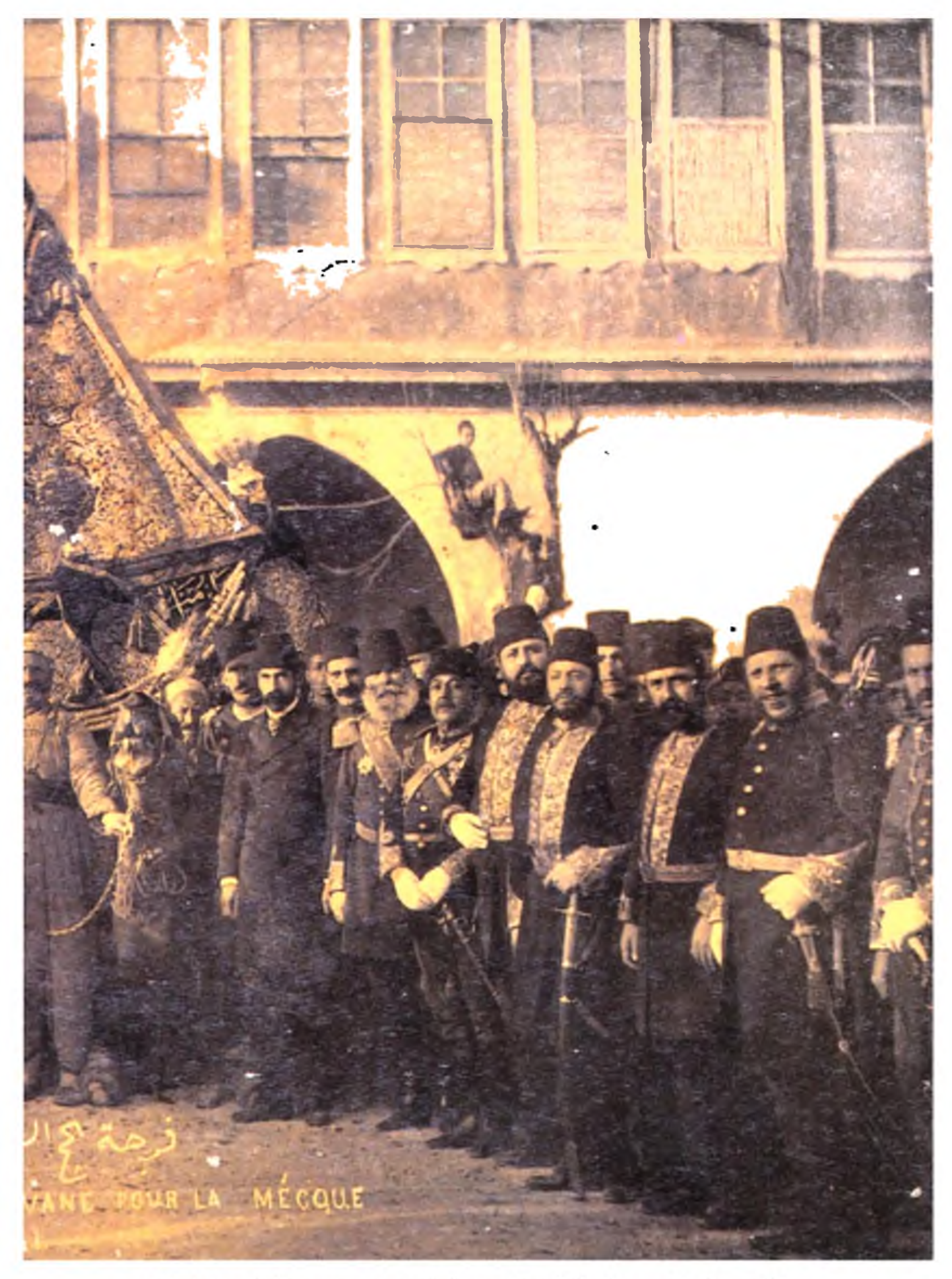
(٢١٠) تربة أراق السلحدار: تنسب لأراق بن عبد الله السلحدار. شيدت في العهد المملوكي سنة ٧٥٠هـ. يوجد بالقرب منه ضريح ينسب من قبل العامة لصهيب الرومي.
صهيب الرومي: صحابي جليل كان في بداية حياته غلاماً صغيراً يعيش في العراق في قصر أبيه الذي ولاه كسرى ملك الفرس حاكمًا على إحدى المدن. اصبح عبداً نتيجة أخذه أسيراً في غارة للروم. وصل مكة وآمن بالنبي (ص) واشترك في جميع الوقائع. توفي (رض) بالمدينة. طلس، محمد أسعد، ذيل ثمار المقاصد، ص١٩٢. الريحاوي، عبد القادر، العمارة العربية الإسلامية، ص١٦٩.

(٢١١) سليمان الحكيم: مصور دمشقي نشط في التصوير بين عامي ١٨٩١-١٩٢١م. المعلومات قليلة عنه لكن تظهر لقطاته حساً مرهفاً وإبداعاً في اختيار اللحظات. ركز في عمله على دمشق كما أن له صوراً للمدينة المنورة ومكة وعدة لقطات للمحمل منها هذه التي نقدمها هنا. الحاج، بدر، دمشق صور من الماضي ١٨٤٠-١٨٦٠، ص٥٠. والصورة ص١٧٢.



صورة لفرانسيسكو اندفيري حوالي عام ١٩٠٠م. بدر الحاج، دمشق صور من الماضي ١٨٤٠-١٨٦٠.





صورة لمؤسسة بونفيس حوالي العام ١٨٨٠م. بدر الحاج، دمشق صور من الماضي ١٨٤٠-١٨٦٠.

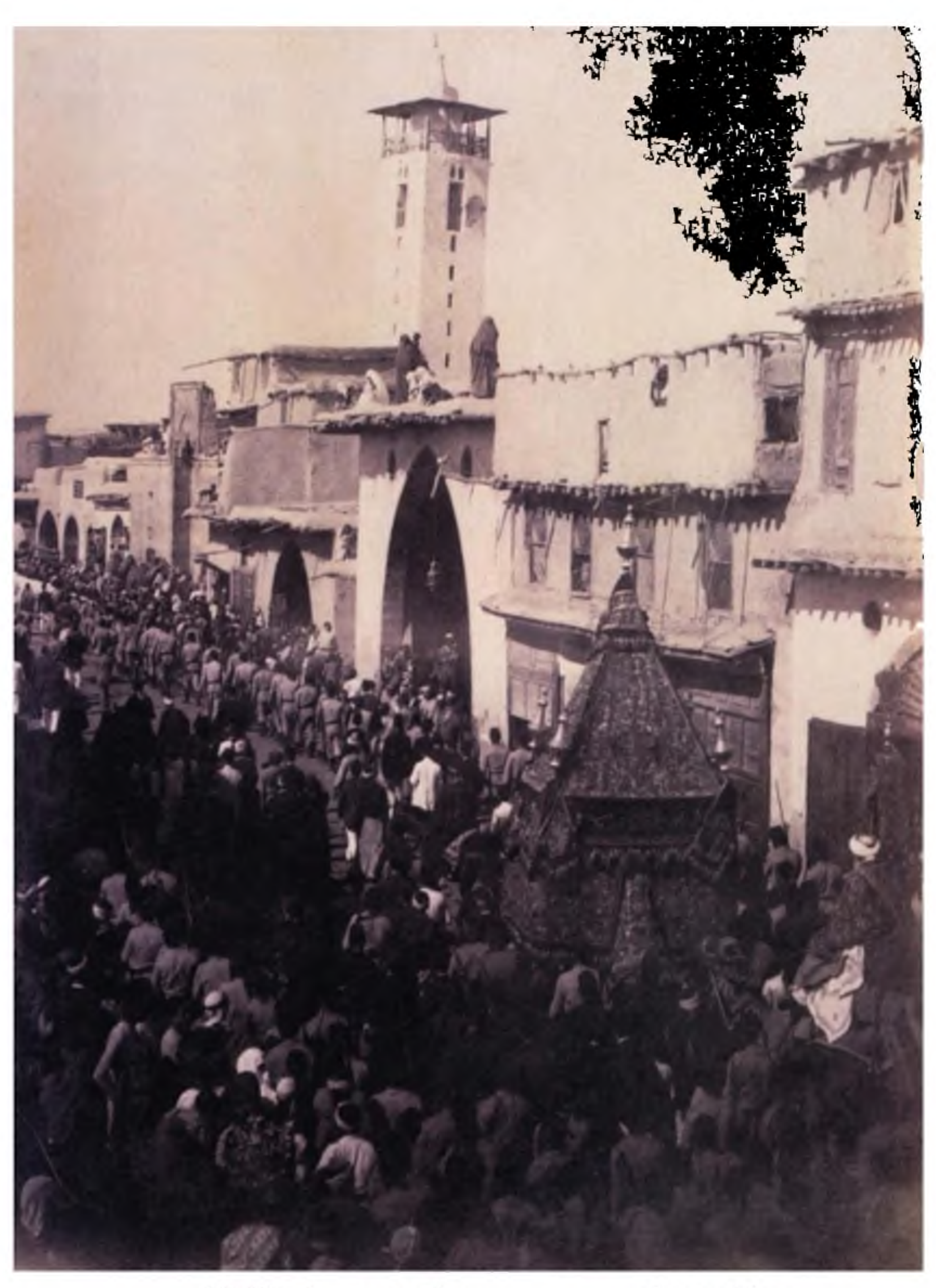

CÉRÉMONIE DU DÉPART DE LA CARA
DAMAS . F. INDIVER

المحمل وجمله في المركز يقوده كما يبدو شخص يرتدي الملابس البيضاء (المحملجي)، يليه السنجق المحمول كذلك على جمل وخلفه حسب وصف بورتون أمير الحج بملابسه الرسمية ممتطياً حصاناً ثم بيرق آخر، أخيراً جموع غير واضحة المعالم، ولا ننسى بالتأكيد المادة الأساسية للمشهد، الجمهور الغفير للذي اكتسح الفراغات خاصة الأسطحة التي غصت بالمشاهدين من النساء والأطفال.

صورة (ص١٠٢) لمؤسسة بونفيس حوالي العام ١٨٨٠[٢١٢]، وهي لمراسم الاحتفال بخروج المحمل للأراضي المقدسة، وهناك عبارة تطابق محتوى العبارة الفرنسية السابقة، فقط نستخدم كلمة القافلة بدلاً من المحمل، ونجد المحمل قبل وضعه على جمله بكامل تفاصيله الواضحة جيداً: مكعب مغطى بقطعتين قماشيتين، قطعة قماشية موشاة بالآيات القرآنية في أعلاه عند بداية الشكل المكعب، وهي ذات الشراشيب، والأكبر تنسدل مغطية الباقي منه مطرزة بالزخارف النباتية و«مشرشبة» أيضاً، في المقدمة فتحة نلمح من خلالها الجزء الذي يركب مباشرة على سنم الجمل، يعلو كل زاوية من زواياه صنوبرة معدنية رشيقة ذات حزوز، ملفوف حول كل واحدة منها قطعة قماشية ذات شراشيب، الجزء الهرمي مغطى كذلك بقماش مطرز بزخارف نباتية، في كل وجه وحدة أساسية في المركز تحتها كتابة، في الرأس صنوبرة ملفوف حولها كما في حالة رؤوس المكعب، وبالقرب من المحمل وعلى كلا جانبيه شخصيات رسمية.

---

(٢١٢) الحاج، بدر، دمشق صور من الماضي ١٨٤٠-١٨٦٠م، الصورة ص١٧٣ .



مصور فرنسي مجهول سنة ١٨٨٧م. بدر الحاج، دمشق صور من الماضي ١٨٤٠-١٨٦٠.


S.HAKIM
49 DAMAS DEPART DE LA CARAVANE
POUR LA MECQUE

يمتد صف طويل من العسكر والجنود، وفي الأعلى كذلك صف من الفرسان ببنادقهم، المبنى في الخلف في ساحة المرجة كما نتوقع هو نفس المبنى أمام السرايا القديمة[٢١٣]، والتي نلمحها بصورة أخرى[٢١٤] خلال استقبال الإمبراطور الألماني سنة ١٨٨٩م، وما يساعدنا في ذلك شكل النوافذ. إن الصورتين المذكورتين للمكان، وخاصة الثانية منهما المحتوية على الأعلام والزينة، تعطي فكرة عن كون المكان ذا استخدام ووظيفة رسمية.

صورة (ص ١١٠) لتانكرد دوماس وأولاده حوالي عام ١٨٨٠م[٢١٥]، وهي لموكب محمل الحج في جادة سوق الغنم، ومن أهم المنشآت التي تتواجد في حيز الصورة، تبدو إلى اليمين بقايا بوابة من الأبلق لتربة مجهولة وبجانبها مباشرة تربة مختار المعروفة بمدرسة الشيخ حسن[٢١٦]، وإلى العمق التربة السنبلية (حالياً تربة آل دركل)[٢١٧]، وفي اليسار تربة الجيبغا[٢١٨]، وفي العمق المدرسة الصابونية[٢١٩] مع مئذنتها.

---

(٢١٣) السرايا القديمة: بناها والي دمشق العثماني كنج يوسف باشا سنة ١٨٠٧م. اقيم مكانها بناء العابد الحالي. الشهابي. قتيبة. دمشق تاريخ وصور. ص٣١.

(٢١٤) الحاج. بدر. دمشق صور من الماضي ١٨٤٠-١٨٦٠م. الصورة ص١٢٢.

(٢١٥) تانكراد دوماس: مصور إيطالي من أصل فرنسي (١٨٣٠-١٩٠٥). افتتح أستوديو في بيروت وقام بتصوير أماكن مختلفة من الشرق ومنها دمشق. الحاج. بدر. دمشق صور من الماضي ١٨٤٠-١٨٦٠م. ص٣٨. الصورة ص١٧٧.

(٢١٦) تربة مختار المعروفة بمدرسة شيخ حسن انشاها أحد أمراء المماليك بدمشق. الطواشي مختار لبدين الطواشي (توفي ٧١٦هـ). كما دفن فيها أحد ولاة دمشق العثمانيين. عرفت في الحقبة الأخيرة باسم الشيخ حسن راعي الحمى النعيمي. عبد القادر. الدارس في تاريخ المدارس. تحقيق: جعفر الحسني. ج٢. ص٢٨٧.

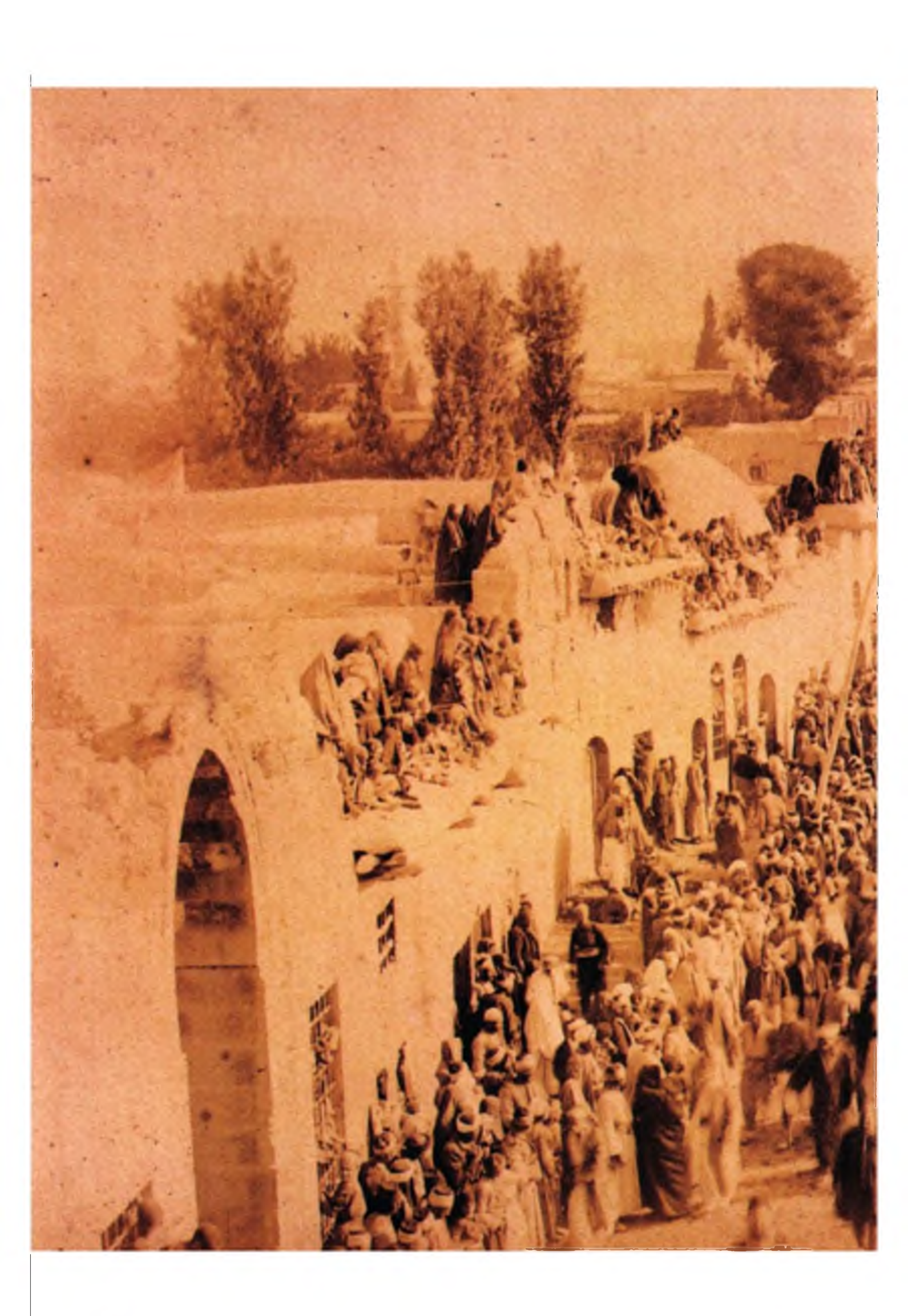
(٢١٧) التربة السنبلية: من الترب المملوكية المنتشرة على طول طريق الميدان تنسب إلى سنبل بن عبد الله الطواشي. توفي حوالي ٨٢٧هـ. عبد القادر. الدارس في تاريخ المدارس. تحقيق: جعفر الحسني. ج٢. ص٢٥١.

(٢١٨) تعرف كذلك باسم التربة الجيمانية. تنسب للأمير سيف الدين جيمان الجيبغا المتوفى سنة ٧٤٥هـ. عبد القادر. الدارس في تاريخ المدارس. تحقيق: جعفر الحسني. ج٢. ص٢٢٧.

(٢١٩) انشاها القاضي الخواجا شهاب الدين أحمد المعروف بالصابوني كدار للقرآن في العهد المملوكي سنة ٨٦٨هـ. عبد القادر. الدارس في تاريخ المدارس. تحقيق: جعفر الحسني. ج١. ص١٣.

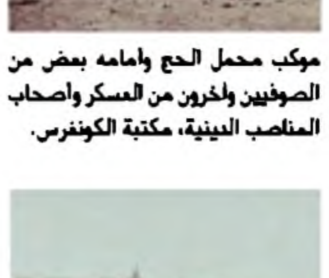


محمل الحج في ساحة المرجة قبل الانطلاق بمراسم الاحتفال، بدر الحاج، دمشق صور من الماضي.





موكب محمل الحج وأمامه بعض من الصوفيين وآخرون من العسكر وأصحاب المناصب الدينية، مكتبة الكونغرس.





الجموع المحتشدة لمشاهدة الموكب، مكتبة الكونغرس.

جموع الموكب غير واضحة تماماً: في الأمام أشخاص من ذوي المراتب الدينية، الفرقة الموسيقية مع الأبواق، الجند مع البنادق، جموع هي على الأغلب من الجند. وفي العمق بجانب القبة السنبلية نلمح المحمل. وكما في الصور السابقة، فإن المتفرجين من سكان دمشق يحتشدون على طول الطريق.

٢- مكتبة الكونغرس:

استطعنا العثور في الأرشيف الهائل لهذه المكتبة التي تعد أضخم مكتبة في العالم على عدة صور ترتبط بموضوع البحث.

الصورة لموكب المحمل والسنجق في سنة ١٩٠٣، تم نسخها من قبل الأميركي ويليام هيرمان رو (١٨٥٥–١٩٢٠)[٢٢٠]، وبعد إجراء عملية تكبير نستطيع أن نشاهد (بدءاً من المقدمة، وإلى اليمين): شخصاً يمتطي حصاناً، فرقة الموسيقى العسكرية، شخصيات دينية ومجموعة من الجند مع بنادقهم، المحمل والسنجق وبيرقاً محمولين على جمال يحيط بهم العسكريون

---

(٢٢٠) ويليام هيرمان رو William Herman Rau (١٨٥٥-١٩٢٠): مصور أميركي اشتهر بصوره للمناظر الطبيعية. اشترك بعدة بعثات ومعارض إحداها كانت مصوراً لمعرض سانت لويس سنة ١٩٠٤-١٩٠٥. التاريخ الأقرب لما هو متوقع لهذه الصورة. موقع متحف الفن في كلافلاند الأمريكية http://www.clevelandart.org/exhibit/legacy/bios/bios-r.html



محمل الحج الشامي والسنجق في الصورة التذكارية للأعيان والمسؤولين المشاركين بتوديع المحمل، مكتبة الكونغرس.

أنفسهم ويتتابعون في نهايات الموكب، نلاحظ في الصف الخلفي من المحتشدين لرؤية الموكب، مجموعة من الصوفيين مرتدين تلك القبعات العالية.

الصورة لموكب المحمل وأمامه السنجق في سنة ١٩٠٣، تم نسخها من قبل ويليام هيرمان رو. في المقدمة مجموعة من الدراويش.

الصورة لتانكرد دوماس بين عامي ١٨٦٠- ١٩٠٠م، وهي صورة رسمية نشاهد فيها المشهد المعتاد حيث الشخصيات الرسمية والمهمة التي ترتبط بالمحمل تجتمع لأخذ الصورة التذكارية مع المحمل والسنجق[٢٢١].

---

(٢٢١) الصور موجودة على موقع المكتبة ضمن مجموعات الصور الرقمية. لمعرفة الروابط راجع قائمة المصادر والمراجع.



المحمل المصري في عرفات (راجع صفحة ١٢٠).

٣- إبراهيم رفعت باشا، مرآة الحرمين:

إن الكتاب من الأهمية بما يجعله في المقام الأول فيما يتعلق بالصور الضوئية، حيث احتوى بجزئيه على المئات من الصور للمدن المقدسة وشعائر الحج، فضلاً عن المحمل المصري وتقاليده بالتفاصيل الدقيقة والتي تعود بغالبيتها للسنوات العشر الأولى من القرن الماضي، ولحسن الحظ كان للمحمل الشامي عدة صور منها، الصور عامة وغير واضحة بشكل جيد.

صورة (ص ١١٦) للمحملين السوري والشامي في جبل عرفة سنة ١٣٢١هـ وسط جموع من الناس، والشامي هو الذي من جهة اليمين والأبعد[٢٢٢]. نشرت الصورة فيما بعد في المقدمة العامة التي كتبها الدكتور أحمد عزت عبد الكريم للمؤلف التاريخي «حوادث

---

(٢٢٢) رفعت باشا، إبراهيم، ج٢، مرآة الحرمين، صحيفة ١٩٠، رقم الصورة ٢٧٢.



المحمل المصري والحجاج يحيطون به وهم بملابس الاحرام (راجع الصفحة ١٢٠).



المحملان المصري والشامي في حج سنة ١٣٢١هـ مراة الحرمين.

دمشق اليومية» لأحمد البديري الحلاق، مع عدة صور حول المحمل دون تعليق، وبالتالي يعتقد القارئ أنها المحمل الشامي موضوع البحث، لكن من أصل الصور الأربع لا نجد سوى هذه الصورة التي تخص المحمل الشامي وبقية الصور هي المحمل المصري[٢٢٣].

صورة (إلى اليسار) كذلك للمحملين الشامي (إلى اليمين) والمصري، وحولهما مجموعة من الحجاج بملابس الإحرام يتقدمهم شخص على فرس (قد يكون أمير الحج؟) في شعائر الحج نازلين من المزدلفة إلى منى سنة ١٣٢١هـ، وذلك خلال

---

(٢٢٣) مقدمة البديري، أحمد، حوادث دمشق اليومية، تحقيق: أحمد عزت عبد الكريم، الصور المقابلة للصفحات ٦٨-٧٦، والصورة المقصودة هي العلوية المقابلة، ص٦٨ .



منظر المحملين المصري والشامي بموقف جبل عرفات. إبراهيم رفعت باشا، مرآة الحرمين.

أداء شعائر الحج[٢٢٤]. نشرت الصورة كذلك في كتاب «الملامح الجغرافية لدروب الحجيج» لسيد عبد المجيد بكر[٢٢٥].

ونجد صورة لمعسكر المحمل الشامي بعرفة سنة ١٣٢٥هـ[٢٢٦].

وصورة بحالة سيئة غير واضحة لاحتفالات توديع المحمل الشامي سنة ١٣٢١هـ[٢٢٧].

٤- عبد العزيز العظمة، مرآة الشام:

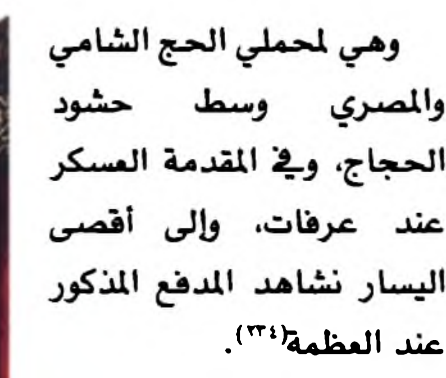
الصورتان المنشورتان في الكتاب حول المحمل ليستا سوى صدى لنفس الصور السابقة وتتميزان بتحديد المؤلف لبعض الشخصيات التي في المشهد.

الأولى (ص ١١٨) لمراسم وداع الحج الشريف سنة ١٨٩٤م في المشيرية (كما في الصور السابقة) برواقها ذي الأقواس المدببة في الخلف، ثم المحمل دون جمله والشخصيات التي في غالبها عسكرية، والملاحظ هنا أن الشخصية الدينية تقف إلى اليسار من المحمل.

الثانية (ص ١٢٠) لموكب المحمل سنة ١٨٩٤م وهو يتحرك باتجاه القدم وبوابة الله، يتقدم المشهد عدة شخصيات تتالى وراء بعضها وتمتطي خيولاً (أكثر من خمسة)، بعدها يتتالى باقي الموكب دون أن نستطيع مشاهدة المحمل بشكل جيد،

---

(٢٢٤) رفعت باشا، إبراهيم، مرآة الحرمين، ج١، صحيفة٤٧، رقم الصورة ٤٥.
(٢٢٥) بكر، سيد عبد المجيد، الملامح الجغرافية لدروب الحجيج، ص١٨١.
(٢٢٦) رفعت باشا، إبراهيم، ج٢، مرآة الحرمين، صحيفة١٩٠، رقم الصورة ٢٧٠.
(٢٢٧) رفعت باشا، إبراهيم، ج٢، مرآة الحرمين، صحيفة٨٧، رقم الصورة ٢٢٢.



وهي لمحملي الحج الشامي والمصري وسط حشود الحجاج، وفي المقدمة العسكر عند عرفات، وإلى أقصى اليسار نشاهد المدفع المذكور عند العظمة[٣٣٤].



محمل الحج الدمشقي والسنجق، متحف التقاليد الشعبية، قصر العظم، دمشق.

الخاتمة:

وهكذا نرى أن المحمل مع قافلة الحج الشامي ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بذاكرة المجتمع الدمشقي بل والسوري عامة باحتفالاته وتقاليده، وصنعت نوعاً من الارتباط بين الشام والحجاز يتجاوز بعده الروحي لمناحٍ أخرى.

على أننا حاولنا تقديم عرض شافٍ ووافٍ للمحمل خاصة، ورحلته بدءاً من دمشق حتى الحجاز، إضافة لتاريخه، للشامي منه خاصة، محاذرين التكرار المعتاد بالنقل من المصادر وإن وجد فبالدمج المعتنى به، وصولاً إلى جديدٍ يفتح الباب أكثر أمام التأكد والحقيقة.

(٣٣٤) البديري، احمد، حوادث دمشق اليومية، تنقيح الشيخ محمد سعيد القاسمي، ثم احمد عزت عبد الكريم، الصورة مقابل ص٨٤.

الملاحق

ملحق رقم (١)

مرسوم تعيين أمير على ركب الحاج الحلبي

«رسم بالأمر العالي لا زال يمنح وفد الله تعالى بمن لم يزل شهاب همه في أفق الصيانة منيرا، ويسند أمرهم إلى كل ندب لا يزال على الحق ظاهرا، وعلى ذوي الباطل ظهيرا، أن يستقر فلان من أعيان الموالي الأمراء الطبلخانات بحلب المحروسة أعز الله تعالى نصرته أميراً على ركب الحاج الحلبي في هذا العام المقبل، على أجمل العوائد وأكمل القواعد، حسب ما رسم به استقراراً يحمد به الوفد عند صباح همه السرى، ويبلغ بهم قرى الغفران بأم القرى، وينال به طيب العيش بطيبة وطابة، ويدرك بجياد فضله آرابه، ويمنح به زيارة سيد البشر عليه أفضل الصلاة والسلام، ويفوق به سهم إصابته من البشر إلى مرامي المرام، ويشهد به بين قبره ومنبره روضة من رياض الجنة، ويلبس به سوابغ القبول لتكون له من سهام الذنوب أوقى جنة، ويتردى به برود التقى حين ينزع محرمات الإحرام، ويقبل به على ذكر الله تعالى في الوهاد والبقاع والآكام، ويستقبل به حرم بيت الله الحرام، ويشب له الهنا حين دخوله المسجد من باب بني شيبة، ويتعاطى به أسباب التوبة لينال من العفو من الله الكريم سيبه، ولا يقتصر به عن التطاول إلى الدعاء إلى الله تعالى لتعمه الرحمة بفضله وطوله، ويدخل به حراماً آمناً يتخطف الناس من حوله، ويفتح به إلى المقام باباً من الأمن إلى يوم القيامة مقيم، ويذكر بوقوفه بعرفات وقوفه ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾. فليباشر هذه الإمرة المباركة مباشرة يتيقظ منها لهجر المنام، وليصرف وجه سهامه إليها في المسير والمقام، ولينفق على

يُعد هذا الكتاب أول محاولة كاملة لسرد قصة المحمل من دمشق وإليها، وهو موضوع شغل الدمشقيين بمختلف شرائحهم لفترة طويلة من الزمن. إن الكتاب يتناول بشكل تفصيلي تاريخ المحمل عامة والمحمل الشامي خاصة، ثم تقاليده مع قافلته المشهورة انطلاقاً من دمشق، حتى عودته إليها من الحجاز، وذلك وفقاً لوقائع ووثائق معتبرة، ومصادر تاريخية وطبوغرافية عديدة.

في صفحات الكتاب عملٌ معتنى به ودقيق حول واحد من الرموز الأكثر أصالة في تاريخ بلاد الشام، والذي امتد العمل به لأكثر من 600 عام. فحياة الدمشقيين ارتبطت بإيقاع خروج وانطلاق وعودة المحمل الذي أحدث في كل مرة جواً من الفرح والتّقى، معبّراً عن فخر محلي لأن دمشق وجدت مكانها كعاصمة كبرى عبر هذه الاحتفالية.



9789933906719